
الهيئة

١٩٧٩-١٩٩٩

كان إعادة الغزو الأصولي

برهاناً على بطلان القول بأن الدين قوة قد نفذت .
فلم يعد المرء بمستطيع أن يتساءل ، كما فعل أحد
المستولين المنفعلين في حكومة الولايات المتحدة عقب
اندلاع الثورة الإيرانية من منا يأخذ الدين مأخذ
الجد؟ . لقد أخرج الأصوليون العقيدة من دائرة الظل
وبرهنوا على أنها تلقى استجابة من قطاع كبير في
المجتمع الحديث . وتسببت انتصاراتهم في استياء
العلمانيين إذ لم يكن هذا هو الدين الذي تم ترويضه
وتهذيبه وخصصته في عصر التنوير . وبدا الأمر
تنكراً لقيم الحداثة المقدسة . وقد أوضحت الهجمة
الدينية في أواخر السبعينيات أن المجتمعات
مستقطبة . وبحلول نهاية القرن العشرين اتضح أن
الهوة قد اتسعت بين المتدينين والعلمانيين . فلم يعد
باستطاعتهم التحدث بنفس اللغة ،
أو مشاركة نفس الرؤى .

ومن المنظور العقلاني، كانت الأصولية كارثة. لكن لم يكن هذا ليثير الدهشة إذ إنه كان في مجمله تمرداً على ما رأى الأصوليون أنه الهيمنة غير الشرعية للعقلانية العلمانية. فكيف لنا أن نقيم الأصوليات كحركات دينية؟ وماذا باستطاعتها إخبارنا إياه عن التحديات الخاصة التي يواجهها الدين في عالم ما بعد الحداثة الراهن؟ وهل كانت انتصارات الأصوليين في مجملها هزيمة للدين؟ وهل ذوى الخطر الأصولي؟

كانت الثورة الإيرانية، على وجه الخصوص، مصدر قلق لهؤلاء الذين مازالوا متمسكين بمبادئ التنوير. وكان المفترض، أن الثورات أمر علماني على وجه التحديد حيث إنها كانت تحدث في فترات يحظى فيها المجال الدنيوي برقى وتميز ويوشك فيها أن يعلن استقلاله عن المجال الأسطوري للدين. وكما بينت هانا آرندت في كتابها الشهير «عن الثورة» (١٩٦٣) فقالت «وقد يتبين لنا في نهاية الأمر أن ما ندعوه ثورة هو مرحلة انتقالية تأتي بميلاد لمملكة علمانية جديدة».

وهكذا، بدت الانتفاضة التي تأتي بدولة دينية أمراً من الفانتازيا الخالصة، مربكة في رفضها الواضح السذاجة للحكمة الغربية المتعارف عليها. ولم يتوقع أحد في أعقاب (كارثة) الثورة الإيرانية أن يستمر نظام الخميني. فقد بدت فكرة الثورة الدينية نفسها، وكذلك الحكومة الإسلامية الحديثة، مفارقات لغوية.

بيد أن الغربيين وجدوا أن عليهم أن يواجهوا حقيقة أن أغلبية الشعب الإيراني تريد حكماً إسلامياً. ولم ينهض المعتدلون، كما تنبأ مراقبون كثيرون، ويحتلوا الساحة للقضاء على الملالى المتجانين. ووجد القوميون الذين أرادوا جمهورية علمانية وديموقراطية أنفسهم أقلية في إيران ما بعد الثورة. إلا أنه لم يكن ثمة اتفاق على شكل الحكومة الإسلامية. فقد أراد ذوو التعليم الغربي من أتباع شريعتي نظاماً يتولى مقاليد الحكم فيه أناس من خارج المؤسسة الدينية، ومنح رجال الدين سلطة أقل. وأراد مهدي بازارجان، رئيس وزراء الخميني الجديد، العودة إلى دستور ١٩٠٦ (بدون النظام الملكي) مع مجلس من المجتهدين له حق نقض

التشريعات البرلمانية غير الدينية. هذا، على حين ضغطت مدارس قم من أجل ولاية الفقيه للخميني. إلا أن آية الله شريعات ماداري وآية الله طلقاني عارضاً بشدة هذه الرؤية لحاكم للأمة من رجال الدين ذى إلهام روحاني إذ إنها انتهاك لقرون من الموروث الشيعي ورأياً أخطاراً جمة في مثل هذا الشكل من الحكم. ثم أعقب هذا، في أكتوبر ١٩٧٩ صراع خطير. فقد هاجم بازارجان وشريعات ماداري مشروع الدستور الذي وضعه أتباع الخميني لمنح السلطة العظمى للفقيه (الخميني) الذي يتحكم بمقتضاها في القوات المسلحة، وبحق إعفاء رئيس الوزراء من مهامه دون إبداء أسباب. واتخذ المشروع أيضاً الترتيبات لانتخاب رئيس للجمهورية ومجلس نيابي، ولتكوين مجلس للوزراء ومجلس للأمناء من اثني عشر رجلاً له سلطة نقض القوانين التي تتعارض مع الشريعة.

وكانت المعارضة لمشروع الدستور قوية إذ عارضته بشدة جماعات الفدائيين اليسارية والأقليات الإثنية في إيران والحزب الشيعي الإسلامي المؤثر (الذي كونه آية الله شريعات ماداري). كما سيطر التوتر على الليبراليين والطبقات الوسطى ذات التعليم الغربي لما رأوا أنه تطرف ديني للنظام، وبدا لهم أنهم قد قاتلوا بشجاعة ليحرروا أنفسهم من طغيان الشاه السابق ليجدوا أنفسهم خاضعين لطغيان ديني. كما تبينوا أن مشروع الدستور ضمن حرية الصحافة والتعبير السياسي (التي حارب الليبراليون من أجلها بهلوى) بشرط عدم معارضة الشريعة والممارسات الإسلامية. وكان رئيس الوزراء بازارجان صريحاً بوجه خاص وحرص على ألا يهاجم شخص الخميني أبداً، لكنه انتقد بشدة ما أسماه المؤسسة الدينية الرجعية في الحزب الثوري الإسلامي المستولة عن البنود المقترحة في الدستور التي ستؤدي إلى انتهاك كل أهداف الثورة الإسلامية.

وواجه الخميني مأزقاً، فقد كان من المقرر أن يقتنع الناس على مشروع الدستور يوم ٣ ديسمبر عام ١٩٧٩ في استفتاء قومي، وبدا أنه من المحتمل أن يهزم مشروع ولاية الفقيه. وكان الخميني قد ظل براجماتياً حتى هذا التعطف، حيث تمكن ببراعة من التحكم في تآلف اليساريين والليبراليين للإطاحة بنظام الشاه، إلا أنه اتضح في نهاية عام ١٩٧٩ أن هذا التحالف المرتبك لمجموعات ذات أهداف

معارضة كان على وشك التهاوى، وأن مستقبل الثورة، كما رآها هو، أصبح في خطر. وهنا أتت الولايات المتحدة إلى مساعدته دون قصد منها.

فرغم إدانته أمريكا كشيطان أعظم، فقد ظلت العلاقات بين حكومة الولايات المتحدة والنظام الإسلامي الجديد حذرة لكنها محايدة ومنضبطة. وفي ١٤ فبراير عام ١٩٧٩، عقب عودة الخميني إلى إيران، هاجم الطلبة السفارة الأمريكية في طهران وحاولوا احتلالها إلا أن الخميني وبازارجان تحركا بسرعة لتفريق المهاجمين. وظل الخميني متشككاً في الشيطان الأكبر، ولم يستطع أن يقتنع أن أمريكا ستتخلى عن مصالحها في إيران دون معركة. ومن منطلق الخوف الأساسي الذي رأينا أنه يطارد معظم القادة الأصوليين، اعتقد الخميني أن الولايات المتحدة تتحين الفرص، وأنها ستهدد الجمهورية الإسلامية الجديدة بانقلاب يماثل ذلك الذي أطاح بمصدق عام ١٩٥٣ حينما تمين الفرصة. وحينما وصل الشاه السابق إلى نيويورك في ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٩ كى يتلقى معالجة طبية من السرطان الذى كان فى سبيله للقضاء عليه، بدأت شكوك الخميني تتأكد، وكان قد سبق أن حذر الخبراء الولايات المتحدة، وحذرتها طهران من السماح بدخول الشاه السابق. إلا أن كارتر اعتقد أنه بغير استطاعته أن ينكر خدمة إنسانية على حليفه السابق.

وسرعان ما أصبح خطاب الخميني ضد الشيطان الأكبر أشد عنفاً وضراوة. فطالب بإعادة محمد رضا بهلوى إلى إيران لحاكمته، وطالب بتطهير الحكومة من كل من ظلوا موالين للنظام السابق. وأعلن عن وجود خونة فى إيران مازالوا يعتمدون على الغرب وأنه يجب إقصاؤهم عن الأمة. ولم يكن الأمر يستدعى عبقرية خاصة كى يكتشف الفرد أن الهدف الأساسي لتلك الهجمة كان رئيس الوزراء بازارجان ومعه كل المعارضين لمشروع الدستور. ثم أتاح بازارجان الفرصة للخميني لتنفيذ هدفه حينما سافر فى ١ نوفمبر إلى الجزائر لحضور الاحتفالات بذكرى الاستقلال حيث التقطت له الصور وهو يصافح زويجينو برزنسكى مستشار كارتر للأمن القومى. وسعد أعداء بازارجان فى أوساط الثورة الإيرانية بأن يدينوه كعميل لأمريكا. ووسط هذا الجو المشحون، قام ثلاثة آلاف طالب بالهجوم على السفارة الأمريكية فى طهران واحتفظوا بتسعين من الرهائن. وفى البداية،

افتراض الجميع أن الخميني سيضمن الإفراج الفوري عنهم ويأمر الطلبة بالانسحاب كما سبق له أن فعل . ولا نعرف إلى يومنا هذا ما إن كان الخميني قد علم مسبقاً بهجوم الطلبة أم لا . وعلى أية حال ، فقد ظل يتجنب الأضواء لأيام ثلاثة . وحينما تحقق بازارجان أنه لن يحصل على دعم الخميني لإخلاء السفارة ، تبين له عجزه السياسي ، وقدم استقالته ومعه وزير الخارجية إبراهيم يازدى يوم ٦ نوفمبر . ولدهشتهم ، وجد الطلبة ، الذين توقعوا أن يستمر حصارهم أياماً قليلة فقط ، أنهم يقفون في المقدمة كراس حربة في مواجهة كبرى بين الخميني والولايات المتحدة . ودعم الخميني والجمهورية الإسلامية الشورية الطلبة . ومنح الديوع الإعلامي الذي أحاط بأزمة الرهائن في جميع أنحاء العالم الخميني قوة إصرار جديدة . ورغم الإفراج عن الرهائن من النساء وجنود البحرية السود ، فقد استمر احتجاز الدبلوماسيين الأمريكيين الاثني وخمسين مدة ٤٤٤ يوماً ليصبحوا أيقونة الراديكالية الدينية الإيرانية .

وكان الرهائن هدية السماء للخميني إذا أتاحت له التركيز على الشيطان الأكبر أو عدو خارجي . وأسفر أسر الرهائن وكراهية ما بعد الثورة لأمريكا عن إيرانيين متحدين خلف الخميني في تلك الفترة من الاضطراب الداخلي . كما أن خروج بازارجان أزاح أكثر معارضي مشروع الدستور الجديد صخباً وأضعف المعارضة . وعلى هذا ، تمت الموافقة على الدستور الجديد في ديسمبر بأغلبية مؤثرة في استفتاء عام . ونظر الخميني إلى مسألة الرهائن ببساطة ، من منطلق وضعه الداخلي . وشرح لبنى صدر ، رئيس الوزراء الجديد ، في بداية توليه الوزارة الموقف قائلاً :

«إن لهذا الفعل مزايا عديدة ، فالأمريكيون لا يريدون أن يروا الثورة الإسلامية تتجذر . وسبقني على الرهائن حتى ننتهي من أمورنا الداخلية ، ثم نفرج عنهم . لقد وحد هذا الموقف شعبنا ولن يتجرأ أعداؤنا على الإتيان بفعل ضدنا . كما أن باستطاعتنا إجراء الاستفتاء على مشروع الدستور دون صعوبات ، ثم نجري الانتخابات الرئاسية والنيابية . وبعد الانتهاء من كل هذه الشؤون ، يمكننا الإفراج عن الرهائن» .

وكانت هذه سياسة لا تملئها روحانية إسلامية بالرغم من خطب الخميني النارية، بل كانت قطعة من الفكر المنطقي البراجماتي. وتغيرت نظرة الخميني إلى نفسه من جراء الأزمة. فبدلاً من أن يظل سياسياً عملياً، أصبح من وجهة نظره، قائداً للأمة في صراعها ضد الإمبريالية الأمريكية، مضافاً بذلك على لفظ الثورة في خطابه قيمة شبه مقدسة، لها نفس أهمية التعبيرات الإسلامية التقليدية. فقد أصبح وحده الذى يستطيع مجابهة أعتى القوى الإمبريالية فى العالم والكشف عن حدود سطوتها. وفى نفس الوقت، فإن ما أطلقتها الأزمة فى أنحاء العالم من كراهية لإيران جعل الخميني يدرك، أكثر من أى وقت مضى، هشاشة الثورة، التى أصبح الأعداء يتهددونها من الداخل والخارج، فتم اكتشاف أربعة محاولات للانقلاب على النظام فيما بين الأيام الأخيرة من مايو ومنتصف يوليو عام ١٩٨٠. واستمرت المعارك فى الشوارع بين أعضاء المنظمات الفدائية العلمانية وحرس الخميني الثورى حتى نهاية العام. وازداد التشوش والرعب فى تلك الأيام، بانتشار ما سمي «المجالس الثورية» فى جميع أنحاء إيران حتى إن الحكومة لم تتمكن من السيطرة عليها. وقام هؤلاء «القميطة» «Komitah» بتنفيذ أحكام الإعدام فى مئات الأفراد بتهمة «السلوك غير الإسلامى» مثل الدعاية، أو لوجود الأشخاص فى موضع المسئولين أيام حكم أسرة بهلوى. ويبدو أن ظهور مثل تلك الجماعات بعد تهاوى القوة المركزية خاصة عالمية للثورات التى يقصد بها تغيير المجتمع. ورغم أن الخميني أدان تلك «القميطات»، حيث أعلن أنهم ينتهكون الشريعة ويقوضون نقاء الثورة، إلا أنه لم يقم بحل هذه الجماعات، إلى أن تمكن فى النهاية من إخضاعهم له والتحكم فيهم وجعل منهم طبقة أساسية تدعم نظامه. وكان على الخميني أيضاً أن يواجه الحرب مع العراق. ففى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٨٠ غزت قوات صدام حسين جنوب غرب إيران بتشجيع من الولايات المتحدة، وكان هذا يعنى تعليق الإصلاحات الاجتماعية التى خطط لها الخميني. وكانت الرهائن، طوال تلك الفترة تخدم أهدافاً خاصة، ولم يتم الإفراج عنهم إلا فى ٢٠ يناير ١٩٨١ عندما أصبحوا عديمي الجدوى (أى فى اليوم الذى تولى فيه رونالد ريغان الرئاسة الأمريكية).

وكما كان محتملاً، فقد شوهدت مأساة الرهائن صورة الجمهورية الإسلامية

الجديدة. فرغم الخطاب الطنان عن عتو الشيطان الأعظم فلم يكن ثمة ما هو إسلامي أو ديني في احتجاز الرهائن. بل على العكس، فرغم أن الإمساك بالرهائن لم يلق قبولاً من الإيرانيين، كان بإمكان الكثيرين تقدير رمزيته. فمبنى السفارة يعتبر حيزاً لدولة ما على أرض أجنبية، واحتلال الطلبة لها كان يعنى غزواً للسيادة الأمريكية إلا أنه بدا من الصواب بالنسبة للبعض أن يؤسر الأمريكيون في سفارتهم في إيران، لأن الإيرانيين قد شعروا لعقود عديدة أنهم معتقلون في بلدهم بالتواطؤ مع الولايات المتحدة التي دعمت ديكتاتورية بهلوى. وكان هذا سياسة انتقام وليس ديناً. ففي خلال الأيام الأولى لهذا الاحتلال، تم تقييد أيدى وأرجل بعض هؤلاء الرهائن ومنعوا من الحديث وأبلغوا أن الولايات المتحدة قد تخلت عنهم. وفيما بعد، نقل الرهائن إلى أماكن مريحة؛ وهذا النمط من القسوة وسوء المعاملة يتعارض مع البصيرة الرئيسية للأديان السماوية بما فيها الإسلام. فليس ثمة مصداقية لأية تعاليم أو ممارسات دينية لا تؤدي إلى التعاطف العملي. وتوافق البوذية والهندوسية والأديان التوحيدية في نظرتها للحقيقة المقدسة على أنها ليست محض تسامٍ «هناك في الأعلى»، لكنها موجودة في كل فرد بشري، الذي يجب أن يلقى الاحترام والتكريم المطلق من هذا المنطلق. إلا أن العقائد الأصولية اليهودية والمسيحية والإسلامية لا يمكن لها اجتياز هذا الاختبار الحاسم إن هي أصبحت شريعة غضب وكرهية.

وحقاً، فهذا النمط من احتجاز الرهائن ينتهك القوانين الإسلامية المحددة بشأن معاملة الأسرى. فالقرآن الكريم يأمر المسلمين بمعاملة أعدائهم معاملة إنسانية ويؤكد على عدم شرعية احتجاز الأسرى إلا في حالة الحرب النظامية (ويصبح الإمساك بالرهائن الأمريكيين واحتجازهم لا مجال له في ضوء هذا). ولا يجوز إساءة معاملة الأسرى، بل يجب الإفراج عنهم، إما على سبيل المعروف أو نظير فدية بعد انتهاء أعمال القتال. وإن لم يفتد أحد الأسير، فله الحرية في البحث عن عمل يتكسب منه حتى يفدى نفسه، وعلى المسلم الذي يوكل إليه الحفاظ عليه أن يساعد الأسير في الحصول على الفدية المطلوبة من موارده هو. وثمة حديث ينسب إلى الرسول عن معاملة الأسرى يقول فيه إن على المسلمين إطعامهم من طعامهم وإلباسهم من لباسهم ومساعدتهم إن أوكل إليهم عمل شاق. ولا بد أن احتجاز

الرهائن أيضاً لا يلقى قبولاً من الشيعة الذين يجعلون الأئمة الذين أسرهم الحكام الطفافة فى أراضى غريبة إرضاء لمصالحهم الشخصية. وقد يكون لاحتجاز الأسرى بهذا الأسلوب صدى أو معنى سياسى، إلا أنه لا ينتمى للدين أو الإسلام.

إن الأصولية عقيدة قتالية ترى نفسها تحارب من أجل البقاء فى عالم معاد مما يؤثر فى رؤيتها ويشوهها أحياناً. وكما رأينا، كان الخمينى يعانى من تخيلات مرضية تصيب الكثير من الأصوليين. ففي ٢٠ نوفمبر عام ١٩٧٩، وعقب احتجاز الرهائن، احتل الحرم المكى عدة مئات من الأصوليين السنين وأعلنوا أن قائلهم هو المهدي المنتظر. وأدان الخمينى هذا الكفر كفعل مشترك من الولايات المتحدة وإسرائيل. ويظهر هذا النمط من التفكير المؤامراتى عادة حينما يشعر الناس أنهم مهددون. وكان المشهد فى إيران قائماً. فقد كان ثمة إحباط من النظام رغم احتفاظ الخمينى بشعبيته الشخصية. ولم يكن يسمح بأى نقد أو معارضة للحكومة. وخلال عام ١٩٨١ تدهورت علاقات الخمينى بكبار آيات الله، وكانت ثمة حالة حرب معلنة بين الإسلاميين الراديكاليين الذين أرادوا العودة الكاملة لشريعة الشيعة من جانب، وبين العلمانيين والأشخاص من خارج المؤسسة الدينية من جانب آخر. وتمت الإطاحة بنى صدر فى ٢٢ يوليو عام ١٩٨١ هرب بعدها إلى باريس وكان قد تولى رئاسة الجمهورية لمدة عام واحد. وفى ٢٨ يونيه قُتل حليف الخمينى الأول آية الله بهيشتى مع خمسة وسبعين عضواً من حزب الثورة الإسلامية فى هجوم بالقنابل على مقر الحزب. وكان الخمينى، حتى هذا المنعطف، قد فضل أن يولى أشخاصاً من غير رجال الدين الوظائف الرئيسية، إلا أنه فى أكتوبر سمح لحجة الله خامينى أن يصبح رئيساً للجمهورية. وأصبح رجال الدين أغلبية فى المجلس. وبحلول عام ١٩٨٣ تم قمع كل المعارضة للنظام. والتجبات منظمة مجاهدى خلق إلى العمل السرى بعد رحيل بنى صدر، وتم حل الجبهة القومية، والحزب القومى الديمقراطى الذى كان يرأسه حفيد مصدق، والحزب الجمهورى الشعبى الإسلامى برئاسة شريعات مادارى، وبشكل متزايد أخذ الخمينى يدعو إلى «وحدة التعبير».

وكما يحدث عادة بعد الثورات، بدأ النظام الجديد أوتوقراطياً مثل سابقه وأخذ

الخميني، حينما حاصر الأعداء النظام، يصر على التطابق الأيديولوجي مثل الثوار المؤدلجين العلمانيين الحدائين الآخرين، إلا أن هذا مثل انحرافاً جديداً بالمعنى الإسلامي. فالدين الإسلامي، مثل اليهودية، يطالب بتطابق الممارسات وليس بأرثوذكسية العقيدة على الإطلاق. وكان يفترض أن «يحاكي» الشيعة السلوك الديني مجتهد ما، إلا أنهم لم يتوقع منهم أبداً الاتفاق والتطابق مع معتقداته. وأصر الخميني على أن يقبل الإيرانيون نظريته بشأن ولاية الفقيه. وسحق كل المعارضة. ورأى أن الناس لن يبلغوا الكمال الروحاني الذي أراده لهم إلا بتبنيهم الأفكار الصحيحة. فلا مجال لديوقراطية الآراء، إذ إن على الناس اتباع الفقيه الأعلى الذي منحته رحلته «العقيدة الكاملة»، وحينذاك يصبح باستطاعتهم اتباع طريق الأئمة. وهذا لا يعنى الديكتاتورية. فالمسلمون بحاجة للوحدة إن أرادوا البقاء في عالم معاد. كما أخبر الخميني وفداً من أذربيجان أن «الإسلام يواجه اليوم الكفر والأعداء. ونحتاج إلى القوة التي يمكننا الحصول عليها من التوجه إلى الله العلي الكريم، ومن خلال توحيد التعبير». كما أنه ليس بوسع المسلمين التقاتل فيما بينهم إن أرادوا مواجهة القوى العظمى. ورأى الخميني أنه يجب اتخاذ خطوات قاسية لإعادة توحيد إيران وإعادتها مرة أخرى إلى المثل الإسلامي بعد أن انقسمت لمدة طويلة إلى «أمتين» نتيجة لعملية التحديث.

وأصاب الغربيين الرعب حينما سمعوا الخميني يخبر الآباء بنبيذ أبنائهم المعادين للنظام، وأن الإيرانيين الذين يتفاكهون عن أمور خاصة بالدين هم مرتدون يجب إعدامهم. فقد كان هذا انتهاكاً لخل الحرية الفكرية التي أصبحت مقدسة في أوروبا وأمريكا. إلا أن الغربيين أجبروا أيضاً على ملاحظة كيف أن الخميني لم يفقد حب الجماهير له خاصة رجال البازارات وطلبة المدارس والعلماء الأقل مرتبة والفقراء. فلم يشمل برنامج الشاه التحديثي هؤلاء، كما أنهم كان باستطاعتهم فهم الخميني لا الغرب الحديث. فقد ظلوا يفكرون ويتحدثون بأسلوب ديني ما قبل حدائني لا يستطيع المحدثون الغربيون استيعابه. إلا أن الخميني لم يضيف على نفسه مظهراً بابائياً. فقد أصر على أن «عصمته» لا تعنى أنه لا يخطئ. وكان يضيق ذرعاً بأتباعه الذين يأخذون كلمته على أنها مقولات منزلة. فأخبر رجال الدين في مجلس الأمناء في ديسمبر عام ١٩٨٣ قائلاً: «إن هذا لا يعنى أنه عليكم

التمسك بما قلته مجرد أننى تفوهت به أمس».

غير أن «توحيد التعبير» كان قيداً، وقد يعتبره البعض تشويهاً للإسلام. فقد أصر الأصوليون اليهود والمسيحيون أيضاً على التطابق الدوجماتى مؤكدين - بنبرة حادة أحياناً - أن رؤيتهم للعقيدة كانت وحدها هى المشروعة. وقلص «توحيد» الخمينى «للتعبير» سياسات الإسلام إلى أيديولوجيا. كما أنه بإعطائه السيادة لنظرياته ونشرها كانت ثمة مخاطرة أن تميل إلى الوثنية، أى الإعلاء من شأن التعبير البشرى على الحقائق الإلهية ليحتل مكانة مطلقة. وكان هذا أيضاً قد نجم عن شعور الخمينى بالخطر. فقد استمر لسنوات يقاتل نظاماً علمانياً مدمراً للدين. وكان حينذاك يقاتل صدام حسين، على حين أنه كان شديد الإدراك للعداء الدولى المتطرف للجمهورية الإسلامية. فكان «توحيد التعبير» أداة دفاع. فبجعله إيران بلداً إسلامياً مرة أخرى، كان الخمينى يقيم موطناً مقدساً محدداً فى عالم لاربانى أراد تدميره. وكانت خبرة القمع والشعور بالخطر، وإدراكه أنه كان يحارب ضد طبيعة الأشياء فى عالم معلمن بشكل متزايد قد نتج عنه روحانية قتالية ونسخة محوّرة من الإسلام. فقد تركت خبرة القمع جروحها وولدت رؤية دينية قمعية.

وكان الخمينى على يقين أن الثورة كانت تمرداً على البراجماتية العقلانية للعالم الحديث. فقد برهن الناس أنهم على استعداد للموت كى ينجزوا نظاماً للحكم ذا أهداف سامية. وسأل الخمينى جمهوراً من الحرفيين فى ديسمبر عام ١٩٧٩ «هل يرغب أحدكم أن يستشهد ابنه من أجل الحصول على مسكن حسن؟ فهذه ليست القضية. فالاستشهاد معنى به العالم الآخر. وهذا هو الاستشهاد الذى يسعى وراءه كل القديسين والأنبياء.. ويريد الناس هذا المعنى». ولا تستطيع العقلانية العلمانية الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالمعنى النهائى للحياة؛ فقد كان هذا دائماً محدوداً فى دائرة الأسطورة. وقد أدى التخلي عن المنطق الروحانى الأسطورى فى الغرب، بين البعض، إلى الخواء المحسوس الذى وصفه سارتر بالشغب المشكل على هيئة الرب. وكان إيرانيون كثيرون قد أصابهم الاغتراب للغياب المفاجئ «للباطن» من حياتهم اليومية والسياسية. واعتقد الخمينى أن البشر كائنات ثلاثية الأبعاد؛ فإن لهم احتياجات روحانية وأيضاً احتياجات مادية، وبتقديمهم البرهان على أنهم

مستعدون للموت فى سبيل دولة جعلت الدين مركزياً لهويتها، فهم بذلك يحاولون استعادة إنسانيتهم كاملة. وحتى خلال المأزق، لم ينس الخمينى أبداً شق السياسة المتسامى. فحينما قامت الحرب، اقترح بنى صدر أنه قد يكون من المفيد الإفراج عن أفراد هيئة الأركان العسكرية الذين كانوا يعملون مع الشاه من أجل إدارة العمليات الحربية. ورفض الخمينى هذا قائلاً إن الثورة لم تكن ثورة من أجل الازدهار الاقتصادى أو سلامة الأراضى والحدود. واستشهد برواية عن الإمام على أثناء صراعه فى الشام مع معاوية الذى تحدى حكمه. فقد ألقى على مخطبة فى الجنود عن التوحيد. وحينما سأله جنوده عما إن كانت الخطبة مناسبة فى ذلك الوقت أجاب على بأن هذا ما كانوا يقاثلون معاوية من أجله، وليس من أجل كسب دنيوى. فقد كانت المعركة من أجل الحفاظ على وحدة الأمة التى يجب أن تعكس وحدانية الله. أى أن المسلمين كانوا يقاثلون من أجل التوحيد وليس من أجل غزور الشام.

ورغم أن هذا كان باعثاً للإعجاب إلا أنه مثل مشكلة. فالبشر يحتاجون إلى المعنى وإلى المنطق الروحانى، إلا أنهم يحتاجون أيضاً إلى فكر منطقى عقلانى صلد. ولم يكن ثمة غنى عن هذين المجالين فى العالم ما قبل الحديث. والآن، فكما لا يمكن شرح الأسطورة بلغة عقلانية أو منطقية يصبح التعبير عنها فى السياسات العملية محالاً. وظل هذا يمثل صعوبة أدت فى بعض الأحيان إلى فصل واقعى بين الدين والسياسة. وقد أوصت شريعة الأئمة بأن هناك عدم توافق بين الرؤية الروحانية والبرجماتية الصلدة التى تتطلب من رأس الدولة. إلا أن الخمينى كان يجعل التمييز الحاسم بين المنطق الروحانى والفكر المنطقى العقلانى ضبابياً. لهذا كانت سياساته كارثية. فقد أصاب الاقتصاد هبوط حاد مفاجئ من عائدات البترول بعد أزمة الرهائن، ونتيجة لعدم وجود استثمار سليم للدولة. كما حرمت التطهيرات الأيديولوجية مؤسسات الدولة والصناعات من الإداريين الأكفاء. وأدى عداء إيران للغرب إلى حرمانها من المعدات الأساسية وقطع الغيار والمشورة الفنية. وبحلول عام ١٩٨٢ ارتفع معدل التضخم ووجد نقص حاد فى البضائع الاستهلاكية وزادت نسبة البطالة لتصل إلى ٣٠٪ من عامة السكان (٥٠٪ فى المدن). وأصبحت معاناة الشعب محرقة لنظام وضع الخيب الجماعى للشعب على

قمة أجنדתه الأصلية حينما أتى إلى السلطة لأسباب دينية. وبذل الخميني وسعه من أجل الفقراء. فأنشأ «صندوق البؤساء» من أجل رفع المعاناة عن الذين قاسوا شظف العيش في ظل حكم أسرة بهلوى. وأمدت الجماعات الإسلامية في المصانع والورش العمال بقروض بدون فوائد. وفي المناطق الريفية، ألحق «جهاز الإنشاء» الشباب بعمليات بناء منازل للفلاحين، وبمشاريع زراعية وصحية وخيرية خاصة في مناطق الحرب. إلا أن هذه الجهود أفسدتاها الحرب التي لم تكن من صنع الخميني.

وكان الخميني مدركاً للتوتر بين ما هو روحاني وما هو عملي. وكان يعنى أن الدولة الحديثة بحاجة إلى إسهام شعبي وحكومة تمثل الشعب تمثيلاً كاملاً. وكما اكتشف الغرب في سيرة محمدية، فإن هذا هو النمط الوحيد من الحكم الذي يصلح مجتمع صناعي تكنولوجي. وكانت نظرية «ولاية الفقيه» محاولة منه لتوفير سياق إسلامي للمؤسسات السياسية الحديثة لإضفاء معنى عليها لدى الشعب. كما يضفي الفقيه الأعلى ومجلس الأمناء على المجلس النيابي المنتخب أهمية روحانية ودينية يحتاجها الشعب المسلم الذي لم يكن باستطاعته التواصل مع المثال الغربي العلماني. ومن هذا المنطلق، كانت ولاية الفقيه محاولة لإمداد الأنشطة العملية للمجلس النيابي بأساس روحاني ولاحتواء ما هو حديث في رؤية موروثية. إلا أن الخميني كان قد طور نظرية ولاية الفقيه في مدرسة بالنجف، وما بدا صحيحاً على الورق، برهن على أنه إشكالي حينما جرى تطبيقه في إيران. واتضح هذا حتى منذ وقت مبكر عام ١٩٨١، واستمرت هذه الصعوبة تقلق الخميني طوال الفترة الباقية من حياته.

وفي عام ١٩٨٣ اقترح المجلس بعض إصلاحات الأراضي الهامة التي تضمن توزيعاً أكثر عدالة للموارد. وتعاطف الخميني مع هذه المبادرة التي كان من شأنها إفادة الشعب رغم معارضتها لحرفية الشريعة. وكان يدرك أنه إن لم تنجز إيران هذا الإصلاح سيظل نظامها زراعياً وإقطاعياً وسيكون أي تحديث أمراً سطحياً. إلا أن مشروع الإصلاح الزراعي واجه المصاعب فطبقتا للدستور. كان على كل التشريعات أن تعزز على موافقة مجلس الأمناء الذي كان له حق رفض القوانين التي

يرأها غير إسلامية. وكان كثير من العلماء في المجلس يملكون أراضى شاسعة، ومن ثم، مارسوا حق النقض لدى عرض مشروع القانون عليهم. وحاول الخميني التفاهم معهم. وقال إن رجال الدين «لا يجوز لهم، على أية حال، التدخل في أمورهم غير مؤهلين لها». وأن هذا «سيكون خطيئة لا تفتقر، لأنها ستؤدي إلى فقدان الأمة ثقافتها في رجال الدين». وكان رجال الدين ملينين بالشريعة والفقه، لكنهم لا يعرفون الاقتصاديات الحديثة، ولا بد للجمهورية الإسلامية أن تكون ذولة حديثة، الأمر الذي يتطلب خبراء يعملون في مجال خبرتهم.

إلا أن الطريق المغلق الذي وصلت إليه الأمور استمر كما هو. ورفض مجلس الأمناء أن يتزحزح عن موقفه في هذا الشأن. لذا، التجأ الخميني إلى معالجة أكثر روحانية. فأخبر مجموعة من رجال الدين، في مارس ١٩٨١، أنه «لا يجوز أن يتوقع أحد أن يحاول إصلاح الآخر إن لم يبدأ بإصلاح نفسه؛ فلا يستطيع رجال الدين إعادة الناس إلى الإسلام إن ظلوا هم تعوقهم الأنانية وتحتجزهم صراعات القوى التي لا طائل من ورائها. فعلى كل واحد من العلماء كبح هذه الأنانية التي تعوق تطور هذا البلد الإسلامي؛ وانتهى الخميني إلى أن الحل هو الوصول إلى مرحلة تتفاوضون فيها... عن أنفسكم حيث لا يكون ثمة ذوات... تتصارعون معها، أو جدل أو عراك». وكان المنبع المباشر لهذا الاعتقاد هو ممارسة الخميني للعرفان الصوفي. فالساعي، وهو يتقرب إلى الله، ينزع عن نفسه تدريجياً الرغبات الأنانية إلى أن يستطيع إبصار «رؤية الله» التي تحدث التفسير. إلا أن دينامية السياسات الحديثة تختلف تماماً عن التأمل الروحاني. وأصم العلماء ومجلس الأمناء آذانهم عن التماسات الخميني فعادة ما تجتذب السياسة الأفراد إلى درجة عالية من الذاتية. كما أن المؤسسات الحديثة تعمل وفقاً لتوازنات مصالح متناسقة وليس بإنكار الذات. وحينما طور الخميني نظرية ولاية الفقيه اعتقد أن العلماء ومجلس الأمناء سيؤكدون على القيم الصوفية الباطنية لغير المرئي؛ وبدلاً من هذا، فقد بدأوا ملوثين، غارقين في وحل مادية الظاهر مثل غيرهم من البشر العاديين.

ولكى يكسر حالة التوقف، حث رئيس المجلس حجة الإسلام هاشمي رفسنجاني

الخميني على استعمال سلطته كفقيه أعلى كى يوافق المجلس على مشروع القانون. وكان الدستور يمنح الفقيه الأعلى سلطة القول الفصل فى كل الشئون الإسلامية وتنفذ قرارات مجلس الأمناء. واقترح وفلسايجانى أن باستطاعة الخمينى الاستشهاد بالمبدأ الإسلامى الخاص بالمصلحة الذى يسمح للمشرع باستحداث تشريعات لأوامر ثانوية تتعلق بقضايا لا ينص عليها القرآن الكريم والسنة. وكان قد بدأ يدرك أن مركز الفقيه الأكبر قد يضعف سلطة المؤسسات التى تحتاجها الجمهورية الإسلامية للبقاء فى العالم الحديث. وكان الخمينى رجلاً مسناً، ورأى أنه إن استمر فى التدخل فى قرارات مؤسسات الحكومة وقلبها على أساس من كاريزمتة الشخصية، فمن المحتمل أن يفقد المجلس النيابى ومجلس الأمناء مصداقيتهما واستقلالهما وألا يكتب للدستور الإسلامى البقاء بعد موته. وهكذا استمر المأزق بين مجلس الأمناء والمجلس النيابى.

وحاول الخمينى إحقاق الخنزى بالعلماء بأن أشار إلى مثل الأطفال الإيرانيين الذين يستشهدون كل يوم فى الحرب بين العراق وإيران. وكان هؤلاء الأطفال الشهداء يوضحون الأخطار الأخلاقية لترجمة الرؤية الصوفية إلى سياسة واقعية. فعند اللحظة التى أعلنت فيها الحرب تراحم المراهقون فى المساجد وهم يتوسلون أن يرسلوا إلى الجبهة. وكان الكثيرون منهم ينتمون إلى المناطق السكنية الفقيرة ومدن الصفيح، وقد تحولوا إلى راديكاليين أثناء الثورة. وفيما بعد، وجدوا أن حياتهم الكئيبة التى تبعث على السأم بشكل لا مفر منه هو سقوط مفاجئ من الذروة. وكان بعضهم قد التحق «بصندوق البؤساء» أو عمل فى «جهاد التعمير» إلا أن كل هذا لا يقارن بنشوة أرض المعركة. وكانت إيران غير معدة تقنياً للحرب، فقد كان هناك انفجار سكانى وكان الشباب يشكلون الأغلبية فى البلاد. وأصبح «صندوق البؤساء» نواة جيش قوامه عشرون مليوناً من الشباب كانوا متشوقين للفعل. وأصدرت الحكومة مرسوماً بالسماح للأطفال الذكور ابتداء من سن الثانية عشرة أن يتطوعوا للذهاب إلى الجبهة بدون إذن من والديهم ويصبحون بهذا فى رعاية الإمام ويمكنهم ضمان مكان لهم فى الجنة فى حالة وفاتهم. وتدفق عشرات الآلاف من المراهقين وهم يرتدون عصابات رأس حمراء التى هى شارات الشهداء إلى منطقة القتال. وقام بعضهم بإزالة الألقام وهم يهرلون فى مقدمة القرات

لتنفجر فيهم تلك الألفام وتقطعهم إرباً. وعمل بعضهم كمفجري عبوات انتحارية يهاجمون بها دبابات العراقيين بأسلوب الطيارين الفدائيين اليابانيين Kamitaze. وتم إرسال الكتبة إلى الجبهة خصيصاً ليكتبوا وصايا هؤلاء الصبية التي كانت كثيراً ما تأخذ شكل خطابات إلى الخميني يتحدثون فيها عن النور الذي غمر به حياتهم وبهجة القتال «إلى جانب أصدقاء في سبيلهم إلى الجنة».

وأعاد هؤلاء الصبية إيمان الخميني بالثورة إذ كانوا يتبعون مثل الحسين ويموتون كى «يشهدوا أولوية غير المرئي». وهذا هو أسمى درجات التنسك والزهد الذي يتسامى فيه المسلم على نفسه ويصل إلى حد التوحد مع الإله. وخلافاً لمن يكبرونهم سناً، كف هؤلاء الأطفال على أن يكونوا «عبداً للطبيعة، يزاجون بين أنفسهم ومصالحها والعالم المادى. فقد كانوا يساعدون إيران على الوصول إلى «مكانة لا يمكننا وصفها إلا بالقول إنها بلد إلهي، إذ إن الناس حينما يركزون على «ما هو مادى وديوى يصبحون أدنى من البشر». وأعلن الخميني أن الموت لا يعنى الغناء، إنه الحياة». وأصبح الاستشهاد أمراً حاسماً فى ثورة إيران ضد البراجماتية العقلانية للغرب، وضرورياً للجهاد الأكبر فى سبيل روح الأمة. إلا أنه رغم تأكيد الخميني على أن الموت ليس فناء، كان هناك نوع من العدمية فى البعث بآلاف من الأطفال إلى موت مبكر عنيف؛ الأمر الذى يناقض القيم الإنسانية الأساسية ذات الأهمية القصوى للمتدينين والعلمانيين معاً والتي تتعلق بحرمة الحياة، وبدوافعنا الفطرية لافتداء الأطفال بحياتنا إن استوجب الأمر. وكان التكريس للطفل الشهيد تشويهاً قاتلاً آخر للعقيدة كان ينزع إليه جميع الأصوليين فى الديانات السماوية. وربما ينبع هذا من الرعب الذى يتجم عن القتل ضد أعداء أقرباء يسعون إلى تدميرنا. إلا أنه يبرهن أيضاً على ترجمة إلزام صوفى أسطورى إلى خطط لسياسيات براجماتية أو عسكرية أو سياسية. فحينما تحدث الملا صدره عن الموت الصوفى للذات، لم يخطر له موت آلاف الصبية الجسدى الطوعى. ومرة أخرى، فإن ما يبدو مؤثراً على المستوى الروحانى، قد يصبح مدمراً ولا أخلاقياً إن هو ترجم ترجمة حرفية وعملية فى العالم الدنيوى.

وكان من الواضح أن عملية إنشاء دولة إسلامية قد برهنت على أنها شديدة

الصعوبة. ففي ديسمبر ١٩٨٧، نظر الخميني، الذي كان قد أصابه الوهن والمرض، مرة أخرى في أمر المسألة الدستورية. وكان مجلس الأمناء هذه المرة يقف حجر عثرة في سبيل قوانين العمل حيث ادعى أنها تتعارض مع الشريعة. وأعلن الخميني الذي كان يدعم المجلس النيابي الشعبي ضد العلماء النخبويين الرجعيين أن للدولة سلطة إبدال النظم الإسلامية الأساسية إذا اقتضى خير الناس هذا، وأن الشريعة هي قانون قبل صناعي ويقتضى الأمر تكييفها جذرياً مع مقتضيات الحياة الحديثة. وأعلن الخميني أن بإمكان الدولة إبدال:

«تلك النظم الإسلامية الأساسية بأى نوع من النظم الاجتماعية والاقتصادية ونظم العمل والشئون المدنية والزراعية، وأن تجعل الخدمات... التي تحتكرها الدولة أداة لتنفيذ السياسات العامة والشاملة».

وأتى الخميني هنا بإعلان للاستقلال. فعلى الدولة أن «تحتكر» مثل هذه الأمور العملية، وأن تستقل عن التشريعات الدينية الموروثة المقيّدة. ثم ذهب إلى أبعد من هذا بعد أسبوعين. فقد كان الرئيس خاميني يفسر تلك الملاحظات على أنها تعني أن للمفقيه الأعلى حق تأويل الشريعة. وأجابه الخميني أن هذا لم يكن مقصده. وكرر، دون ذكر لدور الفقيه، أن للحكومة السلطة، ليس فقط لتأويل القانون الإلهي، لكنها أداة تنفيذ هذا القانون نفسه. فالحكومة جزء أساسي هام من الحكم السماوي الذي أولاه الله نبيه وله «الأولوية على غيره من الأوامر السماوية الثانوية»، لدرجة أن له الأسبقية في أهميته على بعض أركان الإسلام كالصلاة وصوم رمضان والحج.

«فللحكومة السلطة أن تلتفي من جانب واحد أي إجماع تشريعي.. إذا تعارض هذا الاتفاق مع مصالح الإسلام والبلاد. ولها أن تمنع أي أمر، سواء كان دينياً أم دنيوياً، إذا كان ضد مصالح الإسلام».

وكان الشيعة قد أصروا لقرون على فصل المجالات؛ فمنطق الدين المطلق الروحاني يضافى المعنى، إلا أنه واضح التمييز عن منطق السياسة العقلاني البراجماتي. والآن، أصر الخميني على أنه لا يجوز إعاقه الحكومة في مساعها النفعي في سبيل مصالح الشعب والخير الأعظم للإسلام.

واقترض البعض أن الخميني يعني حكومته هو واعتقدوا أنه كان يُعَلَى من شأن مبدأ ولاية الفقيه إلى مكانة نسمو على أركان الإسلام. واتهم المراقبون الغربيون الخميني بجنون العظمة. إلا أن رفسانجاني، رئيس المجلس، أوضح أنه لم يذكر الفقيه. واقترح أنه قصد المجلس بلفظ الحكومة. وفي خطبة غير عادية يوم ١٢ يناير عام ١٩٨٨ أتى رفسانجاني بتأويل جديد لولاية الفقيه. فقال إن الله لم ينزل على الرسول في القرآن الكريم كل التشريعات التي تحتاجها الأمة. وأوكل سلطته إلى محمد ﷺ الذي أصبح نائبه وسمح له أن يأتي بمبادراته في تلك الأمور الثانوية. وبالقياس، أوكل الإمام الخميني، الفقيه الأعظم، سلطته إلى المجلس الذي باستطاعته صياغة قوانين جديدة بمبادرة منه. ورداً على التساؤل عما إذا كان هذا يعني أن إيران تحتضن أسلوب الديموقراطية الغربي أجاب بالنفي المطلق. فلم يأت هذا الحق في التشريع من الشعب، بل من الله الذي أوكل السلطة إلى الرسول ثم إلى الأئمة، والآن، فقد أوكلها إلى الإمام الخميني، وكانوا هم - وليس الشعب - من أضفى الشرعية على المجلس. وتجادل رفسانجاني قائلاً «وهكذا ترون، فالديموقراطية بهذا نأخذ شكلاً أفضل من شكلها في الغرب»، لأن مصدرها الله. وهذا أسلوب صحى لحكم الشعب بواسطة الشعب بإذن من ولاية الفقيه». وهكذا دفعت الحاجة إلى وجود دولة حديثة بإيران باتجاه الدولة الديموقراطية، التي أتت هذه المرة في هيئة مجموعة إصلاحات متكاملة إسلامية يمكن للناس التواصل معها، وتتصل بموروثاتهم الشيعية.

وقد يكون رفسانجاني في خطبته هذه قد تخطى «الرسالة البابوية» إلا أن هذا أسعد الخميني. وفي انتخابات ربيع ١٩٨٨ طلب من الشعب مجرد مساندة المجلس دون ذكر لرجال الدين. ولم يفت على الشعب، الذي كان يتطلع إلى إعادة التشييد الاقتصادي لوم رجال الدين المتضمن في هذا الطلب. وفقد العلماء نصف مقاعدهم. وكان ٦٣ فقط من بين أعضاء المجلس المائتين قد تلقوا تعليماً في «المدارس». ومرة أخرى بدا الخميني سعيداً بهذه النتائج. وفي شتاء عام ١٩٨٨ أعطى الضوء الأخضر للسياسيين الأكثر براجماتية الذين كانوا يسعون إلى تعديل الدستور. وأصر في أكتوبر على عدم السماح للعلماء بإعاقه تقدم البلاد حيث يجب أن يقود برنامج التشييد «الخبراء، خاصة الوزراء ولجان المجلس المناسبة».

ومراكز العلوم والأبحاث.. واخترعون والمكتشفون، والتخصصون الملتزمون». ثم سمح بعد شهرين باجتماع لجنة لمراجعة الدستور واستاء المسلمون الأكثر واديكالية الذين رأوا أن أية إذابة لولاية الفقيه خيانة للشورة، إلا أن البراجماتيين بدوا وقد كسبوا الموقف بموافقة من الإمام.

كان هذا سياق الصراع الداخلى الذى أصدر فيه الخمينى فتواه فى فبراير عام ١٩٨٩، أى قبل وفاته بشهور أربعة، ضد الكاتب البريطانى الهندى سلمان رشدى. وكان رشدى فى روايته «آيات شيطانية» قد قدم ما اعتبره مسلمون كثيرون صورة ضالة كافرة للرسول، إذ صوروه (والعباد بالله) شهواتياً ومدعياً وطاغية. أما ما هو أكثر خطورة من هذا، فهو إيماءه أن القرآن قد دنسه أثر شيطانى. والرواية، تعبر ببراعة عن التشوش المحنون لعالم ما بعد الحداثة حيث لا توجد حدود، أو يقين، أو هوية مميزة بوضوح. وكانت الفقرات التى سببت التفور والغضب قد سُجّلت على هيئة أحلام أو فانتازيا لنجم سينمائى هندى استؤصل من جذوره ويعانى من انهيار. وكان قد استبطن معاداة الغرب للإسلام. وأيضاً، كان كفره هذا محاولة منه لإلغاء التمسك بآثار الماضى والحصول على هوية مستقلة معررة من المبادئ القديمة التى حددت شخصيته. إلا أن الكثيرين من المسلمين رأوا صورة الرسول هذه جارحة ومنفرة بشكل عميق. وبدت وأنها انتهاك لشيء مقدس فى شخصهم. وأخبر زكى بدوى، أحد أكثر المسلمين البريطانيين ليبرالية صحيفة الجارديان أن كلمات رشدى هذه «أعظم سوءاً بكثير من لو أنه اغتصب أحد بناتنا». فممارسة المسلمين للإسلام، تجعلهم يستبطنون شخص الرسول فى كيانهم لدرجة أنهم شعروا بالرواية وكأنها «سكين غرس فى جسدك، أو أن شخصاً ما قد اغتصبك». واندلعت المظاهرات فى الباكستان، وتم إحراق الرواية بأسلوب طقوسى فى برادفورد بإنجلترا حيث يوجد تجمع إسلامى كبير من أصول هندية وباكستانية. وقد عارض هؤلاء القوانين البريطانية الخاصة بسبب المقدسات حيث إنها تعاقب فقط من يوجهون الإهانات للدين المسيحى. وكان الغاضبون يدركون التحيز ضد الإسلام المتفشى فى بريطانيا. وفى ١٣ فبراير، شاهد الخمينى الشرطة الباكستانية وهى تطلق النار على المتظاهرين، وانتهى إلى أن الرواية لا بد وأن تكون شريرة. وأمرت فتواه المسلمين فى أنحاء العالم بإهدار دم سلمان رشدى

وأدينت الفتوى في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في الشهر التالي من أربعة وأربعين من مجموع خمسة وأربعين عضواً على أنها غير إسلامية. فمن غير المسموح به في الشريعة الإسلامية إدانة المذنب دون محاكمة أو تطبيق الشريعة في بلاد غير إسلامية. وكانت الفتوى تشويهاً آخر للإسلام. وقد سبق وأن عارض الملا صدره، وهو أحد مرشدي الخميني الروحانيين، بشدة مثل هذا القمع وعنق محاكم التفتيش وكان يصر على حرية الفكر، وانبثق الغضب الإسلامي مرة أخرى من اليقين أن الإسلام قد تلقى ضربة قاضية أخرى. فقد كانت سنوات القمع وتشويه السمعة والهجمة العلمانية قد خلفت الندبات في أحاسيس المسلمين. وكانت الفتوى فعل حرب؛ وخبرها العلمانيون والليبراليون في الغرب الذين شعروا بانتهاك أقدس قيمهم كفعل حرب، وبالنسبة لهم، فمعيار كل شيء هو البشرية وليس إله خارج نطاق الطبيعة. وطبقاً لهذا، فيجب أن يكون لدى الرجال والنساء حرية تحقيق إمكاناتهم في مساعيهم نحو الجودة الفنية الإبداعية. أما بالنسبة للمسلمين، حيث القيمة الأسمى هي حاكمية الله، فإن هذا غير مقبل. وكانت قضية رشدي تصادماً بين أرثوذكسيين لا يمكن تقابلهما؛ ولم يتمكن أي من الطرفين من فهم وجهة نظر الطرف الآخر حتى إن المجموعات المختلفة التي تعيش في نفس البلدة وجدت نفسها متعارضة تعارضاً تاماً مع بعضها البعض.

وبعد وفاة الخميني عام ١٩٨٩ أصبح الاستقطاب بين المتدينين والعلمانيين واضحاً. وكان الغرب ينظر للخميني على أنه العدو. وتملك الناس الدهول لدى رؤيتهم حزن الإيرانيين غير المفتعل في جنازته حيث تدفقت الجموع حول نعشه بانفعال لدرجة أن سقطت الجثة من النعش. وبدأ الأمر كما لو أنهم أرادوا الإبقاء على الإمام معهم إلى الأبد. ولم تنهار الجمهورية الإسلامية بعد وفاته لكنها أبدت علامات نحو مرونة أكثر كثيراً. ورغم أن الفتوى، مثل أزمة الرهائن، قد أثارت عداوة الغرب، إلا أن إيران بدت وكأنها تتحرك باتجاه الروح الغربية. فأوضح الدستور الجديد، الذي تمت الموافقة عليه في ٩ يوليو عام ١٩٨٩ توجهاً ملحوظاً باتجاه أسلوب حكم أكثر علمانية وبراجماتية. فلم تعد القوى الروحانية الصوفية

تُنسب للفقهاء الأعظم، كما أن الفقيه لم يحتل مركزه عن طريق مناداة الشعب به. فكان عليه أن يكون على إمام بالشريعة، ولم يعد الأمر يتطلب أن يكون أحد المجتهدين الكبار. وأدى الأمر إلى وجود أكثر من مرشح محتمل وكانت «الحصافة السياسية» هي الصفة المحددة للقائد الجديد. واحتفظ مجلس الأمناء بحقه في النقض، إلا أن مجلس «تمييز المصلحة» الذي أوكل إليه القضاء في كل منازعاته مع المجلس حد من سلطته. وتمكن المجلس، نتيجة لهذه التغييرات، من تنفيذ كل الإصلاحات التي كان الأمناء يقفون في سبيلها.

وفي اليوم التالي لجنائز الخميني نودي بآية الله خامنئي فقيهاً، ثم أصبح رفصاجاني الرئيس الجديد المنتخب في ٢٨ يوليو ١٩٨٩، وقام بإبعاد الراديكاليين من مجلس وزرائه الذي كان ثلث أعضائه قد تلقوا تعليمهم في الغرب، وضغطوا من أجل استثمارات غربية أكثر وتقليص دور الحكومة في الشؤون الاقتصادية، ذات التوجهات الرأسمالية، إلا أن المشاكل استمرت، حيث ثابر المتشددون في محاربة البراجماتيين؛ وكان باستطاعة مجلس الأمناء إعاقة الإصلاحات، واستمرت أجهزة الدولة معيبة. ويبدو الآن أن احتياجات الدولة تدفع بالإيرانيين إلى تعددية أكثر وعلمنة على أساس شيعي لا على أساس الموروث الغربي. ولم يعد الناس يكتفون العداوة للقيم الحديثة بالقدر الذي كانوا في الماضي لأنهم يستطيعون مقاربتها من خلال وسط إسلامي.

ويمكن رؤية نقطة التركيز هذه في أعمال عبد الكريم سوروش أحد المفكرين القياديين في إيران والذي درس تاريخ العلوم في جامعة لندن واحتل مناصب مهمة في حكومة الخميني بعد الثورة. وهو لا ينتمي الآن إلى المؤسسة السياسية رغم تأثيره القوي على من في السلطة. ودائماً ما تبث محاضراته الأسبوعية في الوسائط الإعلامية كما أنه أحد الخطباء المرموقين في المساجد والجامعات. وأعجب سوروش بالخميني وشريعته، إلا أنه ذهب أبعد منهما. فقد كانت له آراء أكثر تحديداً عن الغرب وذهب لدرجة قوله إنه بنهاية القرن العشرين كان لدى إيرانيين كثيرين هويات ثلاث: ما قبل إسلامية وإسلامية وغربية. وإن عليهم أن يألفوا بينها. فليس كل ما هو غربي ملوثاً ومسموماً إلا أن سوروش لا يقبل بالمنطق

العقلانى الغربى المتطرف فى راديكاليته . فليس يوسع العقلانية ، فى رأيه ، أن تقدم بديلاً حياً للدين قابلاً للتطبيق . فسيظل البشر بحاجة دائمة إلى الروحانية التى تأخذهم إلى ما وراء الماديات . إلا أن على الإيرانيين أن يقدروا قيم العلم الحديث ، وعليهم أيضاً التمسك بموروثاتهم الشيعية ، بيد أن الإسلام يجب أن يتغير بمعنى أن يتكيف الفقه التشريعى مع مقتضيات العالم الصناعى ويطور فلسفة عن الحقوق المدنية ونظرية اقتصادية قابلة للصمود فى القرن الحادى والعشرين . ويعارض شورش أيضاً حكم العلماء لأن «شئون الدين أعظم أن يتولاها رجال الدين وحدهم» . ويتعرض شورش لهجوم كثير من رجال الدين المحافظين إلا أن شعبيته توحى بأن الجمهورية تتحرك باتجاه مرحلة ما بعد الثورة التى ستقرب خلالها من الغرب .

وبدا هذا واضحاً فى ٣ مايو عام ١٩٩٧ حينما تولى حجة الإسلام خامنى رئاسة الجمهورية بأغلبية ساحقة بلغت ٢٢ مليون صوت من مجموع الأصوات وعددها ٣٠ مليون صوت . وسرعان ما أعلن أنه يرغب فى إقامة علاقات أكثر إيجابية مع العالم الغربى . وفى سبتمبر عام ١٩٩٨ فصل حكومته عن الفتوى ضد رشدى وصدق على هذا التوجه الفقيه آية الله خامنى فيما بعد . إلا أن مجلس الأمناء مازال يعوق إصلاحات خامنى الذى كان انتخابه إشارة تعبر عن رغبة قطاع كبير من الشعب فى تعددية أكثر ، وتأويل مرن للشريعة وحماية اقتصادية للمستهلكين وإجراءات أكثر تقدمية بالنسبة للنساء^(*) . وليس ثمة تراجع عن الإسلام . فما زال الإيرانيون يرغبون فى أن تكون حكومتهم ضمن «صفقة» شيعية الأمر الذى يجعل قيم العلم الحديث أكثر قبولاً عما كانت حينما كان ينظر إليها على أنها واردات أجنبية . وقد يفسر الأمر بأنه حينما يتاح للحركات الراديكالية الدينية الإنطلاق ، وتجاوز عدوانيتها وغضبها ، يصبح بعد ذلك باستطاعتها أن تتعلم التفاعل الخلاق مع موروثات أخرى وأن تتجنب العنف الذى يرتبط بماضيها القريب وتسمى إلى السلام مع أعدائها السابقين فالندين ، حينما يكتب ، ينفجر فى صورة أعمال عنف

(*) اتضح هذا بوضوح فى صيف عام ١٩٩٩ حينما خرج الطلبة الإيرانيون إلى الشوارع للمطالبة بديمقراطية أكثر وحكومة اسلامية لا يحقها العلماء الرجعيون (مؤلفة)

على جانب عظيم من الحدة.

وقد اتضح هذا في مصر عام ١٩٨١ حينما تملك الحزن من العالم الغربي لدى سماعه عن مصرع أنور السادات على يد الأصوليين السنيين. وكان السادات حاضراً يوم ٦ أكتوبر بصفته الرسمية احتفالاً بإنجازاته في الحرب ضد إسرائيل عام ١٩٧٣. وفجأة توقفت إحدى العربات المشتركة في العرض أمام منصة الرئيس وحينما رأى السادات الملازم خالد الإسلامبولي يقفز من العربة ويهرول باتجاهه، وقف، وهو يظن أنه قادم لتحيته. بيد أنه بدلاً من التحية وجه إليه سيلاً من طلقات المدافع الآلية. واستمر الإسلامبولي يطلق النار على جسد السادات حتى بعد أن أصيب هو في بطنه وهو يصيح «أعطوني هذا الكلب، هذا الكافر». واستغرقت الهجمة خمسين ثانية قتل أثناءها سبعة بالإضافة إلى السادات، وأصيب ثمانية وعشرون آخرون.

وصُدَّم الغربيون من شراسة الهجمة. فقد كانوا يحبون السادات. فخلافاً للخميني، كان السادات حاكماً مسلماً بإمكانهم فهمه. وكان يبدو متديناً دون أن يكون «متعصباً»، وكانت مبادرته للسلام مع إسرائيل وسياسة الانفتاح قد حازت على إعجاب الغرب. وحضر عدد كبير من الأمريكيين والأمراء الأوروبيين والسياسيين ورؤساء الجمهوريات الغربية جنازة السادات، إلا أنه لم يحضرها أى قائد عربى، ولم تحتشد الناس فى الشوارع، ولم يبك الشعب المصرى السادات، ولم يتزاحموا وقد غمرهم الحزن حول نعشه كما سيفعل الإيرانيون فيما بعد فى جنازة الخميني. ومرة أخرى ظهر الغرب والمجتمعات الأكثر تقليدية فى الشرق الأوسط على طرفى النقيض غير مستطيعين مشاركة بعضهم البعض رؤيتهم للأحداث.

وكما رأينا، فقد كان ثمة عدد كبير من المصريين رأوا أن حكم السادات يمثل الجاهلية أكثر من مماثلته للإسلام. ففي عام ١٩٨٠، احتل الطلبة من أعضاء الجماعة الإسلامية الذين كانوا قد أمروا بإقامة معسكرهم الصيفى قلعة صلاح الدين يوم عيد الأضحى وشجبوا كامب دافيد وأنور السادات داعين إياه «التارى»، إشارة منهم إلى أحد الحكام المغول فى القرن الثالث عشر الذى كان من المفترض أنه

اعتنق الإسلام إلا أنه كان مسلماً بالاسم فقط. كما التحق أعضاء آخرون من الجماعة المقموعة بشبكة الخلايا السرية التي كرس للجهاد العنيف ضد النظام. وكان خالد الإسلامبولي، الذي درس في جامعة المنيا، عضواً في تنظيم الجهاد.

وكان السادات يدرك تلك المعارضة وكان مصمماً على تحاشي مصير صديقه الشاه. وحينما تصاعدت الثورة في إيران، أصدر ما عُرف بقانون العيب عام ١٩٧٨، الذي كان بمقتضاه أى انحراف بالفكر أو الكلمة أو الفعل ضد النظام المؤسسي يعاقب بفقدان الحقوق المدنية ومصادرة جوازات السفر والملكية. وحُظر على المواطنين الالتحاق بأية منظمات أو الاشتراك في أية إذاعة أو نشر أى شيء ينتقد النظام لأن السادات اعتبر هذا تهديداً للوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي. ولم يمر حتى التعليق العارض الذي قد يقال في حضور أفراد عائلة الفرد الخاصة، دون عقاب. وأصبح النظام أكثر قمعاً خلال الأشهر الأخيرة من حياة السادات. فقام يوم ٣ سبتمبر عام ١٩٨١ بتطويق واعتقال ١٥٣٦ شخصاً من منتقديه تضمنوا وزراء وسياسيين ومفكرين وصحفيين ودعاة وأعضاء جماعات إسلامية. وكان أحد هؤلاء المعتقلين هو محمد الإسلامبولي شقيق قاتل السادات.

وباستطاعتنا استبصار دوافع مغتالي السادات من مقال كتبه عبد السلام فرج المرشد الروحي لجماعة الجهاد الذي كان ينتمى إليها الإسلامبولي. وقد نشر المقال بعنوان «الفريضة الغائبة» في ديسمبر عام ١٩٨١ بعد اغتيال السادات وكان المقال لا يستهدف القارئ العام بل اقتصر على كونه دفاعاً عن موقف الجماعة ولذا كان يوزع سراً بين أعضاء التنظيم. ويتيح المقال فرصة فريدة لمعرفة الخطاب الذي كان يتداوله الإسلاميون القتاليون، واهتماماتهم، ومصادر قلقهم ومخاوفهم. وتجادل فرج قائلاً إن للمسلمين مهمة ملحة وعاجلة. فقد أمر الله رسوله بإقامة دولة إسلامية حقة. وبدأ فرج رسالته باستشهاد بأية قرآنية توضح أنه بعد الوحي بثلاثة عشر عاماً فقط كان الله تعالى غير راضٍ عن المسلمين الذين لا يطيعون أوامره: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون» (سورة الحديد، آية ١٦). فلا بد، وبعد مرور أربعة عشر قرناً أن يكون الله أشد

غضباً بكثير. ولذلك، فعلى المسلمين «فعل ما بوسعهم» لتنفيذ إرادة الله. ولا يجوز أن يكونوا مثل من سبقوهم الذين تصوروا أن بوسعهم إقامة دولة إسلامية دون اللجوء إلى العنف. فالوسيلة الوحيدة هي الجهاد أو الحرب المقدسة.

والجهاد هو «الفريضة الغائبة» التي يشير إليها العنوان. ورغم أن المسلمين لم يعودوا يمارسون ذلك العنف المقدس، فقد تجادل فرج قائلاً إنه أهم فريضة على الإطلاق. وكان هذا تحدياً لقرون من الموروث الإسلامي. وعمد فرج، مثل قطب إلى الانتقالية المتطرفة المشوهة للرؤية الإسلامية كي يثبت قضيته. ومرة أخرى، كانت خبرة القمع هي مصدر هذا التشويه. فأصر فرج على أن السيف هو الوسيلة الوحيدة لإرساء المجتمع العادل واستشهد بحديث ينسب إلى الرسول مفاده أن من كان على غير استعداد للقتال دفاعاً عن دينه مات على غير دين الإسلام أو كمنافق يتظاهر بالإسلام. كما قال إن الله يخاطب المسلمين في كتابه الكريم قائلاً: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم» (البقرة/ ٢١٦). كما أنه سبحانه يأمر المسلمين قائلاً «فإذا انسلخت الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد». (التوبة / ٥). واعتقد فرج أن آيات السيف هذه قد نزلت على الرسول بعد تلك الآيات التي تحث المسلمين على تحقيق السلام مع أعدائهم ومخاطبتهم بالحسنى. ومن ثم، ألغت الجماعة التعاليم التي يبدو فيها القرآن منكراً للعنف.

إلا أن فرج واجه صعوبة. فقد كان الإسلام يتحدث عن المشركين على حين أن السادات يدعى أنه مسلم يتبع الأركان الخمسة للإسلام. فكيف للمسلمين أن يحاربوه؟ ووجد فرج ضالته في فتوى ابن تيمية التي تجادل فيها قائلاً إن الحكام المغول الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام في القرن الرابع عشر كانوا في الواقع مرتدين لأنهم كانوا يحكمون وفقاً لقوانينهم بدلاً من أن يحكموا وفقاً للشريعة. أما حكام مصر الحاليون، فكانوا أسوأ من المغول حيث إن قوانين المغول كانت تتضمن، على الأقل، بعض التشريعات المسيحية واليهودية على حين أن التشريع المصري الحالي مؤسس على «قوانين كافرة» من صنع الكفرة وفرضها الكولوناليون

على الشعوب المسلمة . فقال : إن حكام هذا العصر مرتدون . فقد تربوا على موائد الإمبريالية سواء كانت صليبية أو شيوعية أو صهيونية ولا يحملون شيئاً من الإسلام سوى أسمائهم ويزعمون أنهم مسلمون . وكان الطلبة الذين احتلوا قلعة صلاح الدين عام ١٩٨٠ قد قارنوا السادات بالحكام المغول ، ويبدو أن أفكار فرج لم تكن مقصورة على مجموعة قليلة من المتطرفين ، بل كانت منتشرة وتجري مناقشتها بين أعداد كبيرة في أوائل الثمانينيات .

وقد اعترف فرج أن الشريعة قد عرفت الجهاد على أنه جهد جماعي . ولم يكن لفرد أن يشن حرباً مقدسة التي هي قرار تتخذه الجماعة ككل . إلا أن فرج أصر أن الشريعة تطبق فقط حينما يهاجم الأمة عدو خارجي . غير أن الموقف الآن أشد خطورة بكثير ، لأن الكفرة قد استولوا على مقاليد الأمور في مصر وأصبح الجهاد فريضة على كل مسلم قادر على القتال . وهكذا ، تم تقليص كل الإرث الإسلامي إلى نقطة واحدة حيث أصبح السبيل الوحيد لتكون مسلماً في مصر السادات هي المشاركة في حرب مقدسة ضد النظام .

وقد أجاب فرج على أسئلة كانت تشغل أتباعه الشباب . فقد أراد أعضاء الجهاد أن يتصرفوا وفقاً للقوانين الأخلاقية قدر استطاعتهم حتى على الرغم من أنهم كانوا يخططون لعملية اغتيال . فتساءلوا ، هل كان من المقبول أن يكذبوا كي يخفوا خططهم ؟ وماذا عن احتمال قتل متفرجين أبرياء إلى جانب الحكام المذنبين ؟ وأراد الأعضاء الشباب ، نظراً لأهمية سلطة الأسرة في مصر ، أن يعرفوا إن كان من الصواب أن يشتركوا في مؤامرة دون إذن والديهم ؟ كما كان ثمة قلق واضح بينهم عن أولوية اغتيال السادات قبل القيام بتحرير القدس من إسرائيل وتساءلوا أى المهمتين تأتي في المقدمة . وأجاب فرج أن الجهاد من أجل القدس يجب أن يفوقه مسلم ورع لا كافر . كما أنه كشف عن ثقته في حتمية تدخل الله المباشر . فالقدس ستعود تلقائياً إلى المسلمين بمجرد إقامة الدولة الإسلامية . فلقد وعد الله المسلمين بذلك ، اقتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصرهم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (التوبة - ١٤) . وانتهى فرج ، من قراءته الحرفية للنص إلى أن الله سيتدخل ويغير قوانين الطبيعة إن أخذ المسلمون بزمام المبادرة . وسأله تابعوه عما إن كان

المقاتلون سيتلقون عوناً إعجازياً، وكانت إجابة فرج الكارثية «نعم»

وتحير المراقبون من عدم اتباع اغتيال السادات بأية عمليات. فلم يحدث انقلاب أو محاولة لإثارة انتفاضة عامة. وقد يكون سبب هذا هو ثقة الجماعة في التدخل الإلهي بعد أن خطا المسلمون الخطوة الأولى بقتلهم رئيس الجمهورية. ويبدو أن فرج قد اعتقد أن هذا أمر يديهى. فرغم أن التأميرين كانوا يدركون أنهم يقومون بمخاطرة عظمى، رأى فرج أن الخوف من الفشل محض غباء. فواجب المسلم هو إطاعة أوامر الله، وقال إنهم غير مسئولين عن النتائج إذ إن جميع الأمور ستصبح في أيدي المسلمين بمجرد سقوط دولة الشرك.

ومثل أصوليين كثيرين، كان فرج حرفياً. فكان يقرأ النص المقدس كما لو كانت كل كلمة حقيقة واقعية بكل تفاصيلها وبالإمكان تطبيقها ببساطة ومباشرة في الحياة اليومية. وأوضح هذا مخاطر استعمال المنطق الروحاني للكتاب المنزل برنامج عمل للفعل الواقعي. وكان المثال القديم هو فصل المنطق الروحاني ومنطق الفكر الواقعي؛ وكان الفعل السياسي من اختصاص العقل. لكن هؤلاء الأصوليين السنيين، في ثورتهم ضد هيمنة العقلانية العلمانية كانوا يتذون العقل. وكان عليهم تعلم الحقيقة المرة التي مؤداها أنه رغم أن مغتالي السادات قد أطاعوا الله حرفياً طبقاً لاعتقادهم، فإن الله لم يتدخل لإقامة الدولة الإسلامية. فقد تولى حسنى مبارك بعد السادات بدون مشاكل تقريباً، وظل النظام العلماني في مكانه حتى يومنا هذا.

ويبدو أن الأفكار التي أوجزتها «الفريضة الغائبة» لم تكن مقصورة على مجموعة محدودة من المتطرفين بل كانت أوسع انتشاراً في المجتمع المصري عما اعتقده المراقبون حينذاك، فقليل من المصريين هم من أرادوا أن يقتل السادات بالفعل، وقد أصيب معظم المصريين بالصدمة لاغتياله. إلا أن رباطة جأشهم بعد موته كانت أمراً ملحوظاً يبعث على القشعريرة. فمثلاً، أذان مشايخ الأزهر الاغتيال مباشرة. لكنهم لم يظهروا أى حزن على فقدان السادات. وفي العدد الأول من مجلة الأزهر الذى صدر عقب الحادث مباشرة، لم تكن ثمة صورة للسادات، وذكر القتل بشكل مقتضب عارض على الصفحة الثانية وكان المفتى

هو الشخص الوحيد الذى هاجم «الفريضة الغائبة» بشدة ووضوح وكتب رداً مفصلاً على «رسالة» فرج فقال إنه محظور أن يدعى مسلم يؤدي الفرائض مرتداً. كما أن ممارسة التكفير لم تكن شائعة أبداً في الإسلام إذ لا يعلم ما في القلوب سوى الله. وناقش المفتى الآيات التي تدعو لقتال الكفار في سياقها التاريخي وبين أنها أنزلت استجابة لظروف خاصة في المدينة في ذلك الوقت ولا يمكن تطبيقها كما أنزلت حرفياً في مصر القرن العشرين. إلا أنه في مقال آخر في ديسمبر عام ١٩٨١ نُشر في دورية التصوف الإسلامي، وهي الدورية الرئيسية للتصوف، اعتقد المفتى أنه من البديهي أن يكون قراؤه على علم وثيق بتعاليم فرج رغم أنه كان قد نشر «الفريضة الغائبة» منذ وقت قصير ولم يكن من المحتمل أن يكون الجميع قد قرءوها بعد. ومن المحتمل أن الأفكار التي تسربت منه إلى الدوائر الإسلامية وأصبحت شائعة. فقد كانت أغلبية المصريين ينظرون إلى الاغتيال على أنه خطيئة عظيمة، إلا أن الكثيرين لم يكونوا على يقين بشأن السادات. فقد كانت الأحوال قد تغيرت منذ وفاة عبد الناصر، وكان المصريون حينذاك يريدون صفات إسلامية حقة في قادتهم، وكانوا آخذين في التحول عن المنطق العقلاني العلماني.

ووجد مبارك أن عليه أن يعترف بالجو الديني في البلاد. فقام مباشرة بالإفراج عن اعتقالهم السادات في هجمته في سبتمبر عام ١٩٨١. واستمر في محاولته للتحكم في الحركات الإسلامية، إلا أنه استهدف تنظيمات محدودة فقط، وسمح للإخوان المسلمين (التي لم يتم الاعتراف بها رسمياً حتى الآن) أن يشاركوا في الانتخابات وأن ينشئوا لأنفسهم وضعا في الحكومة. وكان التحالف الإسلامي، أو التنظيم الجديد لجماعة الإخوان، قد نأى بنفسه بمهارة عن المتطرفين، وحاول تحسين العلاقات مع المسيحيين الأقباط في مصر، وأن يعمل في سلام على إنشاء دولة إسلامية. ومصر الآن دولة شديدة التدين. فالإسلام الآن في قوة الناصرية في الستينيات. ويبدو أن شعار الإخوان «الإسلام هو الحل» يلقي صدى لدى أعداد متزايدة من الناس. وتحتل الأسئلة الخاصة بالمسائل الدينية الفردية مساحات بارزة في صفحات الخطابات بالمجلات والدوريات، كما تجرى مناقشة حية للقضايا الإسلامية في وسائل الإعلام. وأصبح الزى الإسلامي سائداً. كما يتم الفصل بين

الرجال والنساء فى الفصول الدراسية بشكل منتظم وأصبحت هناك أماكن مخصصة للصلاة فى الأماكن العامة. إلا أنه ما زالت هناك رغبة شائعة لعودة مصر إلى الحكم بالشريعة الإسلامية وأن يصبح الإسلام مصدر التشريع الدستورى. وفى مصر الآن تعددية حزبية وديموقراطية اسمية. إلا أن الفساد ما زال مستشرياً والسلطة التنفيذية شمولية ويفرض حزب الدولة أن يكون مجرد حزب حاكم. وهناك قدر من الشكوك أنه لو أجريت انتخابات حرة فسيمنح الناس أصواتهم للقادة الأكثر تديناً. لهذا، أصبح الإسلام التحدى الرئيسى لنظام مبارك.

لقد نضج إحياء السبعينيات الإسلامى. وتبنى الكثيرون من التيار الرئيسى من مختلف الأعمار والطبقات أصولية معتدلة وليس لدى أغلبية هؤلاء اهتمام بالسياسة. إلا أنه لو أخذت ميولهم الدينية فى الاعتبار فمن السهل تعبتهم بواسطة القادة المتأسلمين لدى حدوث أزمات سياسية واجتماعية واقتصادية. وما زال كثير من الشباب يشعرون أن المجتمع المصرى الحديث لا يولى مصالحهم اهتماماً. وما زالت التنظيمات الأكثر تطرفاً تجتذب الطلبة المتفوقين فى كليات العلوم والهندسة وأقسام الرياضيات الذين يجدون أن أسلوب الحياة الإسلامى الصارم يمنحهم بديلاً بوسعهم أن يحيون وفقه أكثر من الخيار العلمانى، ويساعدهم أيضاً على النقلة الصعبة من الثقافة الريفية إلى ثقافة المدينة الحديثة ويمنحهم إحساساً بالأصالة والانتماء. وأيضاً فهو يتيح لهم الانتماء إلى جماعة، وهو أمر صعب المنال فى المجتمع الحديث رغم أنه يمثل حاجة ملحة. ولا يسمى هؤلاء الشباب إلى تحريك عقارب الساعة إلى الوراء، لكنهم يبحثون عن سبل جديدة لتطبيق النموذج الإرشادى الإسلامى الذى وافق المسلمين وساعدهم لقرون على التكيف مع أحوالهم الراهنة.

إن مشاعر الاستياء العميق التى انفجرت ببشاعة فى عملية اغتيال السادات ما زالت تتأجج تحت السطح بعد عقدين من ليبرالية مبارك المحدودة والتطبيق الجزئى للديموقراطية. والفرق الآن هو أن الإسلاميين أكثر تنظيمياً بكثير. فقد زار باتريك جانفى المستعرب الأمريكى المنيا مرة أخرى عام ١٩٩١ ولاحظ الحشود التى كانت تؤدى صلاة الجمعة فى الشارع العام خارج مسجد أصولى صغير. وكانوا أكثر

تنظيماً بكثير مما كانوا عليه في السبعينيات. فقد اختفى التحدى غير المنظم المهلهل. وكان كثير من المصلين في الثلاثينيات والأربعينيات من العمر ويرتدون زياً موحداً، أى الجلابيب البيضاء وأغطية الرأس الإسلامية الصحيحة. وأعطوا تأثيراً بأنهم يكونون ثقافة تحتية مميزة ومبلورة لها توجهها وهويتها. كما لاحظ جافنى أيضاً مبنى حكومياً ضخماً يحوى مكاتب وزارة الداخلية والذى قصد به أن يرمز إلى قوة الدولة. وكرمز للتحكم فى منطقة اضطرابات سابقة، بدأ المبنى وأنه لا علاقة له بالإسلاميين المتزمين الذين كانت وجهتهم مكة لا القاهرة. فكانت ثمة مملكتان تتواجدان جنباً إلى جنب فى صدع شيزوفرانى دون بادرة للشفاء.

لذا، لا يستدعى وجود حرب بين «الأمتين» الدهشة. وتظهر تقارير بين الحين والآخر عن إلقاء القبض على إسلاميين متطرفين وتبادل الشرطة إطلاق النار معهم، فعلى حين ترتضى أغلبية الإسلاميين الانفصال عن المجتمع العلمانى، تلجأ أقلية صغيرة إلى الإرهاب. ففقا. حدثت منذ عام ١٩٨٦ هجمات ذات دوافع سياسية على أمريكيين وإسرائيليين ومصريين بارزين. ففى عام ١٩٨٧ أطلق إسلاميون النار على حسن أبو باشا وزير الداخلية الأسبق ومكرم محمد أحمد رئيس تحرير المصور. ثم قتلوا رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب فى أكتوبر عام ١٩٩٠، والعلمانى المتشدد فرج فودة عام ١٩٩٢. وقد شهد ذلك العام أول هجمات إسلامية على السواح الأوربيين والأمريكيين. ونظراً لأن السياحة بالغة الأهمية فى الاقتصاد المصرى، فقد رد مبارك بفارات واعتقالات جماعية خرقاء دون تمييز صبت مزيداً من الوقود على اللهب. وادعت جماعات حقوق الإنسان عام ١٩٩٧ أن عشرين ألفاً من المشكوك فى انتمائهم إلى جماعات فدائية محتجزون دون محاكمة فى السجون المصرية - ومرة أخرى - ألقى القبض عليهم مجرد حيازاتهم لنشرات ملتهبة أو لحضورهم اجتماع ما. وفى ١٧ نوفمبر عام ١٩٩٧ قامت الجماعة الإسلامية الإرهابية بقتل ثمانية وخمسين سائحاً وأربعة مصريين فى الأقصر. وأمهروا على أن تلك الهجمة ولن تكون الأخيرة بل سيستمر المجاهدون فى عملهم سادامت الحكومة سادرة فى تعذيب وقتل أبناء الحركة الإسلامية. وتستمر الحرب. فقد استمر اليأس والعبء مصدر إلهام الأقلية الإسلامية السنية فى مصر حيث قاموا بتحويل الإسلام إلى أيديولوجية تشوه الدين تشويها

كاملاً بتجربتها للاغتيال.

ومثل مصر، كانت إسرائيل أيضاً تتحول إلى دولة دينية. وكان هذا أكثر وضوحاً في صعود الحريديم (الأرثوذكس) السياسي خلال الثمانينيات. فقد ظلت أقلية من اليهود الأرثوذكس المتطرفين ينظرون إلى دولة إسرائيل على أنها فاسدة جوهرياً أو أنها «تلوث يحوى كل التلوثات الأخرى وهرطقة كاملة». وكتب يرامايل دومب في نشرة «حراس المدينة» عام ١٩٧٥: «إن الصهيونية فى جوهرها إنكار لأساسيات عقيدتنا. إنها إنكار مطلق يصل إلى الأعماق والأسس والحذور». إلا أن معظم الحريديم لم يذهبوا بعيداً كهذا. بل إنهم رأوا ببساطة أن الدولة غير ذات أهمية دينية ونظروا إليها بعدم مبالاة تامة. وقد مكنتهم هذا الحماد من المشاركة فى السيرة السياسية. وكان باستطاعة الحسيديين رؤية عملهم السياسي فى ضوء دينى، أو كخلاص للومضات الإلهية المحبوسة فى شرك المؤسسات العلمانية للدولة. ورأوا أن بإمكانهم جعل المجتمع الإسرائيلى أكثر انفتاحاً لتغيير مشيخانى بأن يضغطوا من أجل تشريعات دينية مثل حظر لحم الخنزير أو التقيد الصارم بطقوس السبت. وكان المسجانديم الليتوانيون ذوى توجهات أكثر براجماتية، فقد كانوا قد تفوقوا وتحصنوا داخل عالم اليشيفات بشكل أعمق من ذى قبل واستغلوا الدولة لدعم مؤسساتهم. وكانوا لا يهتمون على الإطلاق بمشاكل الدولة أو الدفاع أو السياسة المحلية والخارجية، بل كان معيارهم الوحيد لتفضيل حزب على الآخر هو التمويل والدعم السياسى لليشيفات.

وظل البقاء أحد أهداف الحريديم الهامة. وأصبح موقفهم من الأغبيار أكثر تشدداً. وكانت محاكمة أدولف إيمان فى القدس عام ١٩٦١ قد أحييت الوعى بالهلو كوست الأمر الذى جعل الحريديم أكثر تصميماً على تجنب ثقافة الأغبيار واليهود العلمانيين المشاركين فيها. ونظروا إلى أنفسهم على أنهم فى حالة حرب مع المدينة الحديثة وأنهم لا علاقة لهم بالأغبيار أو ساليهود المتدينين الذين لا يشاركونهم آراءهم عن اليهودية و مرة أخرى ادت حيرة القمع والاضطهاد إلى تضيق الآفاق الدينية وإلى التأكيد المتجدد على التطابق الأيديولوجى. وأصبح

الحريديم بأسلوب متزايد، بغير لفة أو مفاهيم يتواصلون بها بأى طريقة ذات معنى مع العالم خارج اليشيفات أو المجالس الحسيدية. وشعروا بالاعتراب عن جيرانهم مثلما كان أجدادهم يشعرون بالاعتراب عن الأغيار فى الشتات.

إلا أن وعيهم الجديد بالهلو كوست جعل إحساسهم مفرطاً بالخطاير التى تحيط باليهود، ولكنى يحافظوا على التوراة، كانوا على استعداد لاقتحام سيرة السياسة. وعبر عضو فى اتحاد الحريديم عام ١٩٥٠ تعبيراً بليغاً عن هذا التوجه بقوله «إننا ضعفاء، والآليات القوية فى أيدي أعدائنا، ووسط الانقسام والانفصال، فإننا نواجه عواصف تهدد بحوننا لا قدر الرب. وتجعل القوانين التى تضر بعمق كياننا موقفنا مأساوياً غير محتمل. لذا يجب أن نحترس، ونصد أية هجمات ضدنا من داخل الحكومة».

ولم تكن الظروف فى الخمسينيات طيبة. فقد انفصل حزب اتحاد إسرائيل Augdat Israel عن حكومة العمل عام ١٩٥٢ خلاف حول قضية تجنيد النساء فى جيش الدفاع الإسرائيلى ولم يمثل الحزب فى الكنيست مرة أخرى إلى أن أصبح أوجدات عضواً فى الحكومة الائتلافية بعد انتصار الليكود عام ١٩٧٧ ومن ثم اقترب مجلس حكماء التوراة Moetzet G'dolay ha - Torah، وهو الهيئة الاستشارية لأجودات ويتكون من الحاخامات المسنين الذين كان الصهاينة قد أودعهم مزبلة التاريخ العقلية، من مراكز السلطة. إلا أن العداة القديم بين الحريديم المسجنديم طفأ على السطح مرة أخرى فى المجلس وبدءوا ينظرون إلى بعضهم البعض كمتنافسين فى سباق على نفس التمويل. وأدى هذا إلى ظهور أحزاب حريديم جديدة ولاعبين سياسيين جدد.

فمثلاً، تمكك القلق من الحاخام اليعاززا شاس، رئيس يشيفا بونوفيز Ponovez وقائد اليهودية الليتوانية فى إسرائيل من تأثير اليهود السفارديم. وكان الكثيرون منهم قد انظروا تحت لواء أعضاء الحسيديم فى أوجدات. وخشى شاس من أن يزيد هذا من عدد الناخبين الحسيديم ويسحب بعض التمويل من المسجنديم ومجابهة هذا الخطر، خطب ود السفارديم، وأنشأ حزب سفارديم جديد وهو حزب شاس لرعاة التوراة مع حاخام السفارديم الأكبر أوفاديا يوسف. ولم يكن السفارديم نفس

كراهية الأوربيين اليهود للمسيحية. فحتى إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ لم يظهدهم العالم الإسلامي ولم يطوروا عقلية غيتو. لذا لم يترددوا في المشاركة السياسية في شؤون الدولة وانقسموا بعزيمة وحيوية في الحياة السياسية. وكسب حزب شاس في انتخابات عام ١٩٨٤ أربعة مقاعد في الكنيست.

إلا أن ربي لوبافيتش السابع Seventh Lubavitcher Rebbe قرر في عام ١٩٨٨ التصدي للحاخام شاس والمسجنديم. وكان يريد أيضاً أن يجبر شاس على الضغط من أجل تعريف أكثر صرامة لليهودية. وقد أدى هذا التحرك إلى إيضاح عدم مبالاة الحريديم بخير دولة إسرائيل السياسي. فلو أن الحكومة الإسرائيلية أذعنت لرغبات الربى وأعلنت أن نسل الزواج المشترك ليس يهودياً وكذلك من يعتقد اليهودية على يد حاخام إصلاحى لآثارت عداة يهود أمريكيين كثيرين يضغطون بنجاح في الولايات المتحدة من أجل إسرائيل وهذا الدعم الأمريكي ملح وحاسم لبقاء إسرائيل. إلا أن ربي اللوبافيتش لم يكن يعنيه هذا. فقد كان يريد مجرد دفع مهمته الإصلاحية للعالم اليهودي قداماً. وقد واجه بعض مبعوثيه الصعاب مع أناس ينظرون إلى أنفسهم على أنهم يهود إلا أنهم لا يتطابقون مع المعايير التشريعية ولو أعلنت حكومة إسرائيل رسمياً أن هؤلاء ليسوا يهوداً لسهلت الأمور كثيراً على اللوبافيتش. إلا أن تدخل الربى زاد عضوية الحسيديم في أوجدات زيادة كبيرة، ولكي يجابه هذا، كوّن الحاخام شاس حزب مسجنديم جديد هو لواء التوراة ♦ . Degel ha-torah

وسب دهشة جمهور الإسرائيليين فوز الأحزاب الدينية بعدد قياسي من المقاعد، أي ثمانية عشر مقعداً، في إنتخابات ١٩٨٨. وكنيجة لهذا وجدوا أن بأيديهم ميزان القوى بين العمل والسيكود. وأجبر السياسيون العلمانيون الذين كانوا قد احتقروا الأرثوذكس ونظروا إليهم على أنهم مفارقة تاريخية ميشوس منها، على الإتيان إليهم وقبساتهم في أيديهم، ليطلبوا إليهم أن يلحقوا بمعسكرهم لتشكيل الحكومة. وكان الحريديم مازالوا معارضين لدولة إسرائيل كما كانوا من قبل إذ اعتقدوا أن العلمانيين من اليهود مصممون على تحطيم الدين، ونظروا إلى عملهم السياسي كشئ ضروري، أو فعل دفاع عن النفس. وكتب

الحاخام ناثان جروسمان عام ١٩٩١ في صحيفة ياتدنيمما اللتوانية عن العمل السياسي أنه «يمكن تعريفه على أنه تسلل إلى معسكر الأعداء». إلا أن الحريديم حصلوا بشكل شبه قسري على سلطة غير مسبوق في الدولة التي شعروا أنهم في حرب معها. فقد ظل الحريديم منذ الهلوكوست يحاولون إعادة خلق اليهودية الأوروبية، ونظروا للحياة اليهودية القديمة في أوروبا الشرقية على أنها العصر الذهبي وكانوا يسعون إلى الإلهام من حاخامات الماضي العظام. إلا أنهم بحلول الثمانينيات كانوا قد تفوقوا عليهم. فلم يكن ليهودي متدين منذ تحطيم المبد عام ٧٠ ق. م سطوة تماثل سطوة الحاخام شاس، الذي صار له، بحلول عام ١٩٨٨ قيادة حزبين سياسيين كبار، وصار السياسيون يخطبون وده من أجل صوته الحاسم في الانتخابات.

واتضح هذا بشكل درامي في ٢٦ مارس عام ١٩٩٠. فالمعبد الرمزي لثقافة إسرائيل العلمانية هو ستاد كرة السلة الإسرائيلي ياد إلياهو Yad Eliahu. وتقرب كرة السلة في إسرائيل من كونها ديناً قومياً إذ تمثل هذه الرياضة الحلم الصهيوني باليهودي الجديد الذي لم يعد يسحني وهو شاحب على أجزاء التلمود في يشيفا رطبة، ولا يلتحف أردية الأرثوذكسية السوداء، لكنه خلع عنه أرديته من أجل حسن الأداء، ويبدو وقد لوحته الشمس، صحيح الجمعد، ذا قدرة على التنافس الدولي مع الأغيار وهزيمتهم في ألعابهم الخاصة. إلا أنه في مساء ٢٦ مارس عام ١٩٩٠ لم يزدحم الملعب بمشجعي فريق المكابيين (الفريق القومي) المتحمسين، بل بعشرة آلاف من الحريديم الملتهجين الذين يرتدون الأردية التقليدية الواسعة. فقد اقتحم الأرثوذكس المتطرفون قلب إسرائيل العلمانية واستولوا لمدة ساعة على الأقل - على إحدى قلاعها الرئيسية. وعلاوة على هذا، فقد بث الإرسال التلفزيوني الحادث، وشهده الإسرائيليون المتدينون والعلمانيون معاً في أنحاء البلاد وقد حُيست أنفاسهم. والناسبة؟ فقد كان الحاخام شاس على وشك الحديث مع أتباعه لإلقاء تعليماته إليهم بشأن كيفية التصويت في الانتخابات القادمة. واستيقظت الأمة على حقيقة أن ميزان القوة يملكه حاخام مسن يرتدى قبة عالية سوداء، وله عقصتان على جانبي وجهه، ويتحدث خليطاً غريباً من اللغة اليديشية Yiddish والعبرية والآرامية بحيث لم يفهمه مستمعوه العلمانيون. وكان الحاخام

فى ذلك المساء بقرر مصير العمل والليكوڊ.

كانت مسيرة السلام بين إسرائيل والفلسطينيين تسير سيراً أليماً متعثراً، إلا أنها تسببت فى انقسام الحكومة الائتلافية الوطنية. وبدأ كل من العمل والليكوڊ فى السعى وراء تحالفات مع أحزاب أصغر التى كانت الدينية منها تكون أكبر كتلة متفردة. وكان العمل قد عقد اتفاقات غير رسمية مع أوجدات وشاس، لكن الحاخام يوسف، أحد قادة شاس، خشى أن يؤدى التحالف مع العمل إلى انقسام الحزب. ويميل السفارديم لأن يكونوا قوميين منطرفين، ويبغضون العرب. وكانوا متشددين فى تصميمهم على عدم الإتيان بأية تنازلات عن الأرض مثل التى يتصورها العمل. ثم أتى الحاخام شاس، زميله المؤسس للحزب وتطوع أن يتحدث إلى أتباعه فى حزب شاس وحزب لواء التوراة وينصحهم بشأن موقفهم من محادثات الائتلاف الوشكة.

ولم يكن حديث الحاخام الذى استغرق مجرد عشر دقائق مربكاً ومحيراً فقط، لكنه بعث القلق فى نفوس من شاهدوه من الإسرائيليين على شاشات تليفزيوناتهم. فلم يذكر محادثات الائتلاف مباشرة، كما أنه لم يتعرض لأى من القضايا التى كانت تسيطر على تفكير بقية الأمة. فقد كان من الواضح أنه لا يبالي بقضايا مثل حقوق الفلسطينيين والدفاع القومى وجدوى مبادلة الأرض بالسلام. ولم يكن لديه كلمة طيبة واحدة بقولها فى حق دولة إسرائيل. وبدلاً من أن ينظر إلى دولة إسرائيل كمخلص، أشار إلى الزمن «الرهيب والبشع» الذى يعيشه الحريديم الآن. ولم تكن الحرب التى قلق بشأنها الحاخام هى الحروب الإسرائيلية العربية بل المعركة الطويلة التى ظل الصهاينة يشتونها ضد الدين. فقال بانفعال شديد «إن الحروب التى نخوضها ضد من يعارضون الموروث لم تبدأ اليوم؛ فقد بدأت بالفعل فى زمن الحرب العالمية الأولى، ويعلم سيد العالم وحده ماذا نتوقع». إلا أنه لم يساوره شك فى النتائج حيث أكد أنه «لا يمكن تدمير اليهودى. فقد يحدث ويُقتل. إلا أن الأطفال سيظلون يتمسكون بالتوراة».

وكان وضع العمل فى موضع الأعداء أمراً سيئاً بدرجة كافية، إلا أنه، ولاستياهم، فقد كان عليهم أن يستمعوا إلى إدانة مؤسساتهم المقدسة لا بصفتهم

غير يهود بل لأنهم أعداء لليهودية . فتساءل الحاخام ساخراً «هل العمل شيء مقدس؟ ألم يفصلوا أنفسهم عن الماضي ويبحثوا عن تورا جديدة؟» إن هؤلاء الكيبوتزيين ليسوا بأفضل من الأغيار، فإنهم «لا يعلمون ما هو السبت أو ما هو يوم كيبور . فكيف يمكن أن يوكل لهؤلاء أمر تقدير الأمور الحاسمة والجمهورية التي تواجه الشعب اليهودي؟» فلا يجوز أن يكون ثمة اتفاق مع العمل ، «فإنهم لا يهتمون بتقوية التدين حين يكونون في الكنيسة ، بل يحاولون تمرير قوانين تدمر الدين اليهودي» .

ولا تقتصر أهمية ذلك المساء في ملعب ياد إلياهو على مجرد حقيقة أن الحاخام شاس بدا وقد حول ميزان القوة إلى صالح الليكود وحده وبدون مساعدة ، ومن غير مجهود ؛ لكن ذلك المساء كان أيضاً علامة على الرحلة غير العادية للحريديم إلى قلب السلطة بعد أن كانوا مجموعة خارجية محتقرة . كما برهنت تلك المناسبة أيضاً على وجود «أمتين» في إسرائيل غير مستطيعتين أن تفهما إحداهما «لغة» الأخرى ، ولا تتشاركان في أية اهتمامات . وكشف أيضاً عن مشاعر الكراهية العميقة التي هي مصدر إلهام تدين الكثير من الحريديم ، والحقن الموجه ، ليس فقط نحو الأغيار ، بل أيضاً ضد قرنائهم من اليهود .

وكان الأعضاء الصهانية المتدينون في جوش أمونيم على استعداد للقتال أيضاً . فقد كانوا متمردين أخذوا في تصعيد ما اعتقدوا أنه ثورة على القومية العلمانية من جهة ، والأرثوذكسية من جهة أخرى . فقد كانت الحياة بالنسبة لليهود قد تغيرت تغيراً عنيفاً . فقد شعروا أنه ليس ثمة حاجة أن تقيدهم تقاليد الشتات اليهودي لأن العصر الشيعاني قد بدأ . وكان هذا هو الإنجاز العظيم للمسيحانية اليهودية منذ الشيتباي زفى . وقد شعر اليهود في هذا الوقت أيضاً أنهم يمرون بفترة انتقال وأنهم على وشك أن يخبروا تغيراً غير مسبوق . لكن الجوش شعروا بالتقييد المكاني رغم أن باقي اليهود تمردوا على قيود الغيتو . فقد كان هاجس الحدود يسيطر عليهم كما يسيطر على الشاباتيين ، ورغم أنهم ركزوا على حدود أرض إسرائيل تركيزاً أساسياً فقد كانوا أيضاً يخوضون معارك من أجل تعريف حدود اليهودية . فسمروا إلى تقويض الحواجز بين اليهود العلمانيين والتدينين .

واقتنع أتباع كوك أنه، على الرغم مما يعتقدونه الحريديم فباستطاعة الفرد أن يكون أرثوذكسياً كاملاً وأيضاً صهيونياً. كما أنهم بعكس العلمانيين كانوا مصممين على أن الصهيونية لن تكتمل بغير البعد الديني. إلا أن تلك السنوات كانت صعبة. فقد شعر أتباع كوك أن حكومة الليكود قد تخلت عنهم، فقد طردتهم من ياميت. كما أن الحكومة قد أعاقت سيرورة الخلاص بعقدها اتفاق مع العرب. وبدا هذا أوضح ما يكون لدى اشتعال الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧ التي أجبرت حكومة العمل على توقيع اتفاق سلام رأى فيه أتباع كوك أنه غير مقبول بشكل أكبر من كامب دافيد لتضمنه وعداً بالتنازل عن أجزاء من أرض الضفة الغربية المقدسة. وكيهود الشتات، تملك أتباع كوك شعور بأنهم محاصرون بعالم معاد من الأغيار، وأيضاً بقرنائهم من اليهود الذين كانوا يعرفونهم عن إنجاز ما شعروا أنهم باستطاعتهم تنفيذه.

وكنتيجة لهذا، انقلب فرح الجوش الروحاني بالأرض إلى نشوة حنق كانت تنفجر في المناسبات على شكل عنف مرعب ضد العرب في المقام الأول. فقد كان المستوطنون، في الأيام الأولى الواعدة لحركتهم، يقولون إنهم قد أتوا «لمساعدة» الفلسطينيين في الأرض المحتلة ولكسر حائط «الكرهية» بين الشعبين، رغم أن التعبيرات التي عُلمَ بها هذا العرض كشفت عن عدوان حاقده إذ قال لفينجر في السبعينيات «لقد أتينا لنظهركم من هواء القتل الذي تعودتم عليه». وبشكل متزايد، أصبح سلوكه مستفزاً. فقد اعتاد أن يسير بعدوانية حاملاً بندقيته في يده في المدن العربية بالضفة الغربية. وكان يقود النشطاء في حملات ثأرية وهجمات حربية لدى حدوث هجمات للفلسطينيين على إحدى المستوطنات. وكانوا يحطمون زجاج السيارات ويحرقون المناجر. وبعد اشتعال الانتفاضة قال إنه كلما كان يقرب من الخليل، تستيقظ داخلى أرواح حانقة لا تمنحني السلام، وفي عام ١٩٨٨، حينما قذف الفلسطينيون سيارته بالحجارة ففز لفينجر من السيارة وفتح النيران على مهاجميه وقتل خالد صلاح الذي كان يقف بالقرب من متجره للأحذية ولم يشارك في قذف الحجارة. وفيما بعد، تملك منه سعار القتل، فمضى يطلق النيران جزأفاً، ويقلب عربات الخضروات ويهبل السباب بأعلى صوته. وقال أثناء محاكمته أنه رغم عدم قتله أحد فإنه يتمنى لو كان له «شرف قتل عربي».

واختلفت نظريات الجوش عما يجب فعله إزاء العرب في «أرض إسرائيل». واتفق الجميع على أنه لا حق للفلسطينيين في الأرض ولا مكان لهم هناك. وكانت شريعة الكراهية والإقصاء هذه، بالطبع، تشويهاً للعقيدة اليهودية. فقد أمر أنبياء بني إسرائيل، والتوراة، وحكاماء التلمود الربانيون على الواجبات القصرية للعدالة والتعاطف الرحيم، حتى لو لم ينتم «الغريب» مجموعتهم الإثنية وكان فقط يعيش معهم في أرضهم. وقد خص الحاخام هيلل المعاصر للمسيح تعليمات اليهودية في القاعدة الذهبية «افعل تجاه الآخرين ما تود أن يفعلونه تجاهك»، إلا أن أتباع كوك، ومن منطلق الانتقائية الأصولية، ركزوا على الأجزاء الأكثر عدواناً في كتابهم المقدس، تلك التي أمر بها الرب بني إسرائيل بطرد السكان الأصليين لأرض الميعاد، وعدم عقد معاهدات معهم، وتدمير رموزهم المقدسة، وإبادتهم. كما أنهم فسروا عقيدة أن اليهود هم شعب الله المختار على أنها تعنى عدم خضوعهم للقوانين التي تسرى على الأمم الأخرى لأنهم متفردون، ومقدسون، وذوو وضع خاص. وتجادل شلومو آفينر بأن تعليمات الرب بشأن غزو الأرض أهم من «الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية والحقوق القومية للأغيار في أرضنا».

واقترح معظم أتباع كوك أن يسمح للعرب بالبقاء في «أرض إسرائيل» فقط «كمقيمين أجنب» يعاملون معاملة حسنة طالما احترموا دولة إسرائيل. إلا أنه لا يمكن لهم أبداً أن يصبحوا مواطنين أو يمنحوا حقوقاً سياسية. وقد أنكر آخرون على الفلسطينيين حتى هذا القدر من الاعتبار ومارسوا الضغوط عليهم للهجرة، واقترحت أقلية منهم الإبادة. واستشهدوا بالسابقة التي وردت في الكتاب المقدس عن العماليق Amalekites الذين كانوا قوماً عتاة أمر الله بني إسرائيل أن يذبحوهم دون رحمة. وفي عام ١٩٨٠ نشر الحاخام إسرائيل هس مقالاً بعنوان «الإبادة: أمر توراتي» في مجلة جامعة بار-إيلان الرسمية. وتجادل قائلاً إن الفلسطينيين بالنسبة لليهود كالظلام بالنسبة للنور وأنهم يستحقون نفس مصير العماليق. وفي نفس العام، كتب حاييم تزوربا أحد المستوطنين يقول إن «المقت طبيعي وصحي. ففي كل جيل نجد أن هناك من ينهضون لإبادتنا، لذا فلنكل جيل عماليقه الخاصون به. وعماليق جيلنا تعبر عن نفسها في كراهية العرب العميقة المتطرفة لهنضتنا القومية التي حققناها في أرض أجدادنا».

وفى ٣ مايو قُتل ستة من طلبة أحد الـبيشيفات في الخليل . وألهم هذا بعض أتباع كوك المتطرفين بالانتقام . فقام مناحم ليفنى ، وهو مستوطن في كريات أريا ، ويهودا إتزيون ، وهو عسكري من المستوطنين الجوش بزرع قنابل فى سيارات خمسة من رؤساء البلديات العرب لا تهدف إلى قتلهم بل إلى تشويبههم حتى يحبون عبدة للباقيين بعواقب الإرهاب ضد اليهود . وحينما سمع الأنباء ، هلل الحاخام حاييم دروكمان قائلاً : « هكذا ، فليفنى جميع أعداء إسرائيل . » إلا أن أغلبية الإسرائيليين ساءت لهم تلك الهجمة التي نتج عنها تشويه اثنين فقط من المستهدين ، وزاد استياؤهم حينما علموا أن هذا العمل كان فقط فعلاً جانبياً بالنسبة لليفنى وإتزيون . وفى أبريل عام ١٩٨٤ كشفت الحكومة عن وجود جماعة سرية فى إسرائيل خططت لنسف قبة الصخرة ثالث أقدس مكان فى العالم الإسلامى .

استولى جيش الدفاع الإسرائيلى من الأردن أثناء حرب ١٩٦٧ على القدس الشرقية والمدينة القديمة . ثم قامت إسرائيل بعد أيام قليلة من الحرب بضم تلك الأماكن متحدياً بذلك الجماعة الدولية ، وأعلنت القدس عاصمة أبدية لها . وكان هذا القرار خلافياً . وفى عام ١٩٤٧ كانت الأمم المتحدة قد أعلنت أن على القدس أن تصبح منطقة دولية . إلا أنها فى أعقاب حرب ١٩٦٧ طلبت من إسرائيل الانسحاب من جميع الأراضى التي احتلتها بما فيها القدس . فقد ظلت القدس مدينة إسلامية منذ عام ٦٣٨م ، باستثناء فترة حكم الصليبيين القصيرة (١٠٩٩ - ١١٨٧) . والقدس ثالث أقدس مدينة فى العالم الإسلامى بعد مكة والمدينة وكانت قبة الصخرة التي شيدت عام ٦٩١م ميلادية أول صرح إسلامى يتم إنشاؤه . واعتقد - فيما بعد - أن القبة تحدد المكان الذى قدم فيه إبراهيم ابنه أضحية لله . كما بدأ الرسول معراجه الروحانى إلى السماء من تلك الصخرة . وكان هذا المكان مقدساً أيضاً بالنسبة لليهود ، إذ اعتقدوا أن الصخرة تقع على جبل الهيكل الذى يُقال إنه الموقع الذى بنى عليه سليمان معبده .

إلا أنه ولعدة قرون لم يحدث توتر بين المسلمين واليهود فى القدس ؛ فقد اعتقد اليهود دوماً أن معبدهم الذى هدمه الرومان عام ٧٠ ق . م لن يعيد تشييده سوى الخلفى ، لذا لم تكن لديهم خطط بشأن المنطقة التي يسميها المسلمون « الحرم

المخلص، لذا لم تكن لديهم خطط بشأن المنطقة التي يسميها المسلمون والحرم الشريف. ثم أصبح الحائط الغربي الذي تقع الصخرة أسفله مباشرة أكثر الأماكن قداسة في العالم بالنسبة لليهود منذ القرن السادس عشر. وكان الحائط آخر بقايا المعبد الذي بناه الملك هيرود في القرن الأول قبل الميلاد. ثم سمح السلطان العثماني سليمان الفاتح (١٤٩٤-١٥٦٦) لليهود بجعل هذا الحائط محرماً رسمياً لهم. ويقال إن سنان، معماري بلاط سليمان الفاتح، هو الذي صمم هذا الضريح البسيط لليهود هناك.

ثم أنهى الصراع العربي الإسرائيلي تلك الفترة من التوافق بين المسلمين واليهود في المدينة المقدسة، ومنذ عشرينيات القرن العشرين، شهدت هذه البقعة المقدسة عنفاً عظيماً. وخلال فترة ضم الأردن القدس الشرقية والمدينة القديمة لها بين عام ١٩٤٨ و١٩٦٧، منع اليهود من زيارة الحائط الغربي كما هدمت بعض المعابد القديمة في الحي اليهودي من المدينة القديمة. وكانت عودة اليهود إلى الحائط الغربي عام ١٩٦٧ أكثر اللحظات المفعمة بالعاطفة في حرب الأيام الستة، وخبرها اليهود، حتى العلمانيين منهم، حادثاً روحانياً عميقاً.

وحينما ضم الإسرائيليون القدس بعد الحرب وعدوا بإتاحة الأماكن المقدسة للمسيحيين والمسلمين بغير أية قيود. واستمر الحرم الشريف تحت سلطة المسلمين وكانت هذه السياسة محل مقت عميق من القوميين الإسرائيليين المتطرفين وأيضاً الصهاينة المتدينين المتطرفين الذين ادعوا بوجوب إعادة الحرم إلى اليهود. إلا أن الموقف الرسمي اليهودي استمر كما هو إذ إنه لا يمكن إعادة تشييد المعبد إلا بعد أن يأتي الخلاص على يد المسيح. وكان هذا حظراً أصبح على مر القرون في قوة التابو.

ثم بدأ هذا في التغير بنهاية الثمانينيات. فلم يكن ليفنى وإتزيون اليهوديين المتطرفين الوحيدة اللذين حلما بإعادة تشييد المعبد كمقدمة للخلاص. فكيف للمخلص أن يعود والموقع مدنس بقبة الصخرة؟ ومثل الأصوليين الآخرين، اعتقدوا أن عليهم القيام بالمبادرة، وإلقاء الحذر جانباً وإزالة الضريح الإسلامي من على جبل الهيكل كي يهدوا الطريق للمخلص. فلو أنهم أخذوا الخطوة الأولى، فلا شك وأن

الرب يستدخل . ويجازى هذا الفعل الإيماني بأن يتدخل في التاريخ ويرسل الخلفاء
الذى طال انتظاره إلى شعب إسرائيل . واعتقد ليفنى وإتزيون وزملاؤهما المتآمرون
أن الحكومة الإسرائيلية قد ارتكبت خطيئة عظمى بسماحها بسيطرة العرب على
الحرم الشريف أو جبل المعبد الذى فيه الصخرة والتي كانت فى نظرهم «شيئاً
مقيتاً» والسبب الجذرى فى جميع الأخطاء الروحانية لجيلنا .

وكان أحد المؤرخين للجماعة اليهودية السرية هو يوشابن شوشان ، وهو من
القبالة (المتصوفين اليهود) رقيق خفيض الصوت اعتقد أن قبة الصخرة هى ماوى
قوى الشر ، للجانب الآخر ، التى تحول دون الخلاص . وكان هو الذى عرض على
ليفنى فكرة التطهر من هذا «المقت» أثناء مفاوضات كامب دافيد ، والتي رأى أن
تلك القوى الشيطانية هى التى أوحى بها . واعتقد أنه بالاستطاعة تحييد تلك
القوى الشيطانية بهدم القبة وبذا تتوقف فجأة عملية السلام الملعونة . وعلى الأقل ،
فسيصدم هذا الفعل الدرامى الشعب اليهودى فى جميع أنحاء العالم ويمدهم
بالإدراك الصحيح لمسئولياتهم الدينية ، ويجعلهم يبدون الأحاديث عن التصالح
مع الأعداء .

وكانت لحظة مشوبة بالمخاطر . فلم يكن للقصف فقط أن ينهى مسيرة التسوية
بل من المؤكد أنه كان سينتهى بحرب ، يشترك فيها لأول مرة كل العالم الإسلامى
ضد إسرائيل . كما وافق الاستراتيجيون فى واشنطن أنه فى سياق الحرب الباردة
حيث كان السوفييت يساندون العرب والولايات المتحدة إسرائيل ، فقد كان هدم
القبة لا بد وأن يشعل الحرب العالمية الثالثة . إلا أن شبح الكارثة النووية لم يقلق
الطرفين من أتباع كوك . فقد كانوا يؤمنون أنهم بيدتهم عملاً (أبو كالياً) يطبق ما
جاء فى سفر الرؤيا على الأرض ، سيدفعون بالقوات السماوية إلى أن تنشط
«ويجبرون» الرب على التدخل فى جانبهم ، وعلى إرسال الخلفاء لينقذ إسرائيل .

وكان هذا تفكيراً قبلانياً أصابه الجنون . وأيضاً ، فهو مثال مرعب عن التوجه
الأصولى لتوظيف الأسطورة أجنحة لبرنامج عمل . فعلى المستوى العملى ، لم يكن
ثمة ما هو غير عقلانى فى مخطط المتآمرين . فقد كان ليفنى قد دُرب كخبير
مفرقات فى جيش الدفاع الإسرائيلى . وكان قد قام بدراسة الحرم الشريف بدقة

لمدة عامين، وسرق كميات من المفرقات من معسكرات الجيش في مرتفعات الجولان ثم قام بتصنيع ثمانى وعشرين قنبلة بالغة الدقة معدة قياسياً بحيث تدمر القبة دون أن تصيب المبانى حولها. وكان المتآمرون معدين تماماً لتنفيذ الهجمة. إلا أنه ما حال بينهم وبين التنفيذ هو عدم عثورهم على حاخام ليبارك خطتهم.

ومثلت مؤامرة قبة الصخرة التخلي عن العقل والاعتماد على المعجزات. وأيضاً مثلت العدمية التى كان من الممكن أن تؤدى إلى تدمير دولة إسرائيل بكاملها. وقد بينت تلك المشيخانية الكارثية الرغبة فى الموت التى ظلت لوقت طويل جزءاً من التجربة الحديثة. وكانت أيضاً تدميراً للذات لأنها أضرت بمهادقية الجوش أمونيم (جماعة من المتطرفين اليهود نشطت فى إقامة المستوطنات) والتى لم تستعد أبداً الإعجاب الذى كانت قد حازته فى بعض قطاعات المجتمع الإسرائيلى أثناء عصرها الذهبى.

وتميزت أيضاً الحركة التى أسسها الحاخام مائير كاهانا بالعدمية الأخلاقية وكان كاهانا قد انتخب عضواً فى الكنيست عام ١٩٨٤ وفاز بأغلبية ١,٢٪ من الأصوات مما تسبب فى استياء أغلبية الإسرائيليين. وكان قد بدأ عمله فى نيويورك بتنظيمه رابطة الدفاع اليهودية للانتقام من هجمات الشباب السود على اليهود. ثم وصل إلى إسرائيل عام ١٩٧٤ وانتهى به الأمر إلى الاستيطان فى كريات أربا حيث غير اسم منظمته إلى كاش (هكذا) وكان هدفه هو مطاردة العرب لإجبارهم على مغادرة أرض إسرائيل. وكانت أصولية كاهانا هى تقريباً النموذج الأصلى لكل الأصوليات ويهوديته اختزالية وانتقائية بشكل لا هوادة فيه لدرجة أنها أصبحت كارىكاتيراً قاتلاً للعقيدة. فأوضح كاهانا لأحد محاوريه أنه ولا توجد رسائل عديدة لليهودية، فهناك رسالة واحدة فقط وهى أن تفعل ما أراه الرب، والرسالة المقصودة هنا ببساطة هى أن الرب أرادنا أن نأتى إلى هذه البلدة وأن ننشئ دولة يهودية. واتخذ المبدأ اليهودى عن القداسة "Kodesh" أى العزلة، الذى كان يحتفى بشمىيز الأشياء عن طريق الطقوس، عند كاهانا معنى سياسياً فريداً وهو أن الرب يريد لنا أن نحيا فى هذه البلدة وحدنا، منعزلين، كى لا يكون لنا سوى القدر الضئيل من الاتصال بما هو أجنبى. وكان هذا يعنى أن على العرب

أن يذهبوا. ورأى أن وعد الرب لإبراهيم يصلح الآن كما كان صالحاً فى عصر النبوة، والنتيجة هى أن العرب مفتصبون. وبهذا، أصبح المنطق الأسطورى لسفر التكوين برنامجاً سياسياً للتطهر العرقى، وأدت هذه الرؤية الاختزالية منطقياً إلى رؤية مشيخانية تمثل رعباً خالصاً، فقد وقف اليهود على «حافة الخلاص» بعد حرب الأيام الستة. وكانت مهمتهم واضحة بسبب التوجه الأورثوذكسى لليهودية. فكان عليهم أن يحتلوا تلك المناطق ويطردوا العرب «ويعمقوا مقت الأغيار» (قبة الصخرة) ذلك من على جبل الهيكل. فلو أنهم فعلوا هذا لأنهم الخلاص بهيجاً بدون مشقة. وبسبب فشل إسرائيل فى فعل هذا، فرغم أن اغتصاب سيأتى، إلا أن هذا لن يحدث سوى بعد كارثة هائلة مضادة للسامية، أسوأ كثيراً من كارثة الهلوكوست، والتي ستجبر اليهود فى النهاية على طاعة أمر الله الوحيد بالاستيطان فى «إسرائيل» كلها.

وهذه الرؤية القائمة للتدمير والموت رؤية عدمية بشكل عميق. وتبين رواية كاهانا المشوهة عن العقيدة آثار الاضطهاد الطويل والقمع التى باستطاعتها، لو سمح لها، الدخول فى أعماق الروح وتشويهها. وتبصر شريعة كاهانا الأعداء فى كل مكان، أعداء هم فى النهاية متماثلون سواء كانوا مسيحيين أم نازيين أم سوداً أم روساً أو عرباً. فإن كل شيء ينظر إليه من منظور المعاناة اليهودية والانتقام لتلك المعاناة. فلم تكن دولة إسرائيل نعمة الرب لليهود بل انتقامه من الأغيار يقول كاهانا:

«لم يخلق الرب دولة إسرائيل لليهودى أو مكافأة له على عدائه وأعماله الحسنة (لكنه أوجدها) لأنه سبحانه قرر أنه لم يعد يوسع أن يتحمل تدنيس اسمه والسخرية من الشعب الذى سمي باسمه واضطهاده وخزيانه. وهكذا أمر أن توجد دولة إسرائيل التى هى نقض كلى للشتم».

وكان اسم الرب يدنس «فى كل مرة يضرب فيها يهودى أو يفتصبه الأغيار». «فالرب يشعر بالخزي حينما يذل اليهودى. والهجوم على أى يهودى هو هجوم على اسم الرب». وكان العكس أيضاً صحيحاً. فالانتقام العنيف هو Kidush ha-shem أو تقديس لاسم الرب. «فالقبضة اليهودية المسددة إلى وجه عالم الأغيار

المندهش، والتي لم ير تلك القبضة منذ ألفى عام، هو أيضاً تقديس لاسم الرب». وقد ألهمت هذه الأيديولوجية باروخ جولد شتاين، أحد أتباع كاهانا، بأن يطلق النار على تسعة وعشرين مصلياً في كهف الأنبياء (الحرم الإبراهيمي) بالخليل يوم عيد البوريم (النصيب) اليهودي. وقال إنه فعل هذا انتقاماً لتسعة وخمسين يهودياً قتلهم الفلسطينيون في الخليل يوم ٢٤ أغسطس عام ١٩٢٤. وقد أدت هذه الفعلة إلى تصاعد عمليات الإرهاب للجماعات الإسلامية في الأراضي المحتلة وفي إسرائيل نفسها.

فلم يكن ثمة إحياء ديني بين الفلسطينيين مثل الذي انتشر في بقية أنحاء العالم الإسلامي. وكانت استجابتهم للهزيمة العربية سياسية وعلمانية وقومية. فقام ياسر عرفات بإعادة تنظيم منظمة التحرير وأطلق سلسلة من العمليات الفدائية والإرهاب والديبلوماسية لإيجاد حل للقضية الفلسطينية. لكن بعد قمع إيريل شارون لأعضاء المنظمة في غزة عام ١٩٧١، كون الشيخ أحمد ياسين حركة إسلامية سماها «المجمع»، والتي بدأت برنامجاً اجتماعياً يماثل برنامج جماعة الإخوان المسلمين. وأنشأ «المجمع» إمبراطورية خيرية في القطاع تتكون من مستوصفات ومراكز لإعادة تأهيل المدمنين ونوادي للشباب واستعدادات رياضية وفصول لتحفيظ القرآن تدعمها الزكاة ودول الخليج الغنية وإسرائيل التي كانت تأمل في تفويض منظمة التحرير بدعمها للمجمع إذ إن ياسين عند تلك المرحلة لم يكن يهتم بالكفاح المسلح ضد إسرائيل. فقد كان مصححاً يريد أن يدخل ثمار التحديث على اللاجئين في غزة من خلفية إسلامية. وكان أيضاً يصارع القوميين على أرواح الفلسطينيين فقد رأى أن الهوية الثقافية للفلسطينيين يجب أن تكون إسلامية لا علمانية. وبرهنت شعبية المجمع على اتفاق كثير من الفلسطينيين على هذا الرأي. فقد كانوا يفخرون بعرفات؛ إلا أن منطقه العلماني لم يرق سوى للنخبة ذات التعليم الغربي الحديث.

واختلفت أيديولوجية جماعة الجهاد الإسلامي، التي هي شبكة فدائية، تماماً عن المجمع، ومماثلت مع تنظيم الجهاد في مصر. فقد طبقت الجماعة أيديولوجية سيد قطب على المسألة الفلسطينية التي فسروها من وجهة نظر إسلامية فاعتقدوا

أن المجتمع الفلسطيني، في الوقت الراهن، مجتمع جاهلي. ونظر أعضاء الجماعة لأنفسهم على أنهم طلائع تقاتل «ضد قوى الصلف، والعدو الإمبريالي في جميع أنحاء العالم، كما أوضح مؤدجهم الشيخ عودة. فقد كانوا يقودون معركة من أجل الأمة جمعاء. وخلافاً للمجمع، فقد كانت الجهاد مهتمة بالمعركة المسلحة ضد إسرائيل وكانت أهدافها دينية. فمثلاً، قام نشاطها في أكتوبر عام ١٩٨٥ بإلقاء القنابل اليدوية على مجموعة من المدنيين والجنود أثناء احتفال باجندين الجدد عند الحائط الغربي قتل فيه أحد أبناء التطوعين الجدد. وكانت المنظمة في الوقت الذي حدث فيه هذا، قد انتشرت في غزة وأجزاء الضفة الغربية.

ثم انبثقت الانتفاضة الفلسطينية في ٩ ديسمبر عام ١٩٨٧ ومن غزة انتشرت لتشمل القدس والضفة الغربية، وكان جيل كامل من الفلسطينيين قد نشأ منذ عام ١٩٦٧ في تلك الأراضي في ظل الاحتلال الإسرائيلي. وكان صبرهم قد نفذ من المنظمة التي لم تستطع الحصول على استقلال لفلسطين، وأحبطهم الإذلال اليومي والمعاناة التي يلقونها في ظل قوة أجنبية قامة غاشمة. وكان الإسرائيليون قد أمروا أن يستسلم العرب لحكمهم، إلا أن الاستياء من إسرائيل كان قد وصل إلى درجة الغليان عام ١٩٨٧ وأصبحت الرغبة في قيام دولة فلسطينية رغبة عارمة. وركزت القيادات الشابة لتلك الثورة الجديدة على تقويض الاستعمار وشجعوا كل فرد فلسطيني على المشاركة. وهكذا كانت النساء والأطفال يقذفون الجنود الإسرائيليين بالحجارة ويتحدون بنادقهم وقوتهم الأعظم. وحازت الانتفاضة على إعجاب العالم العربي والمجتمع الدولي. كما أنها أمدت حركة السلام الإسرائيلي بدفعة قوية لأنها برهنت على تصميم الفلسطينيين على الحصول على استقلالهم وتحررهم من السيطرة الإسرائيلية بأى ثمن. وقد أثرت الانتفاضة في بعض المتشددين نسبياً من أمثال إيتزك رابين الذي تحقق كجندي من استحالة استخدام جيش الدفاع الإسرائيلي كمن يسحق النساء والأطفال ويجبرهم على الاستسلام. وحينما أصبح رابين رئيساً للوزراء عام ١٩٩٢ كان مستعداً للدخول في مفاوضات مع منظمة التحرير. وفي العام التالي وقعت إسرائيل والمنظمة اتفاقات أوسلو.

إلا أنه في الأيام الأولى للانتفاضة تكررت منظمة جديدة أضفت على الكفاح

الفلسطيني بعداً دينياً عديمياً مقلقاً. وكان قائد الانتفاضة علمانياً؛ إلا أن بعض أعضاء «المجمع» قاموا بتكوين منظمة حماس «حركة المقاومة الإسلامية» التي قاتلت ضد كل من الاحتلال الإسرائيلي والحركة القومية الفلسطينية. فكانوا يقاتلون العلمانيين من أجل الروح الإسلامية لفلسطين. والتحققت حشود الشباب بحماس. وكان كثيرون من هؤلاء من معسكرات اللاجئتين؛ إلا أن بعضهم كانوا موظفين أو أعضاء في الطبقة الوسطى. وكانت حماس حركة عنيفة، ولذا القمع. وتصاعدت عمليات حماس بعد قتل سبعة عشر مصلياً فلسطينياً في الحرم القدسي في ٨ أكتوبر عام ١٩٩٠. ويدافع الخوف من الإبادة، هاجمت حماس أيضاً الفلسطينيين المتهمين بالتعاون مع إسرائيل. وعن هذا قال أحد متحدثيها «إن أعداءنا يحاولون بكل ما لديهم من قوة محو أمتنا، لذا فأى تعاون مع إسرائيل هو جريمة شنعاء». ومثل جماعة الجهاد الإسلامية، رأت حماس الصراع العربي الإسرائيلي من منظور ديني. واعتقد أعضاؤها أن المساة الفلسطينية حدثت لأن الناس أهملوا دينهم، وأنه ليس باستطاعة الفلسطينيين التخلص من الحكم الإسرائيلي سوى بالعودة إلى الإسلام.

واعتقدت حماس أن نجاح إسرائيل يرجع إلى العقيدة اليهودية، وأن إسرائيل مكرسة لتدمير الإسلام. ومن ثم، فقد ادعوا أنهم يخوضون حرب دفاع عن النفس. فبعد أن قام باروخ جولدشتاين بمذبحة المصلين في الحرم الإبراهيمي أقسمت حماس على الشار لكل منهم فرداً فرداً. وانتظر النشطاء حتى بعد حداد الأربعين، ثم قام أحد الأعضاء بقتل سبعة إسرائيليين في هجوم انتحاري بالقنابل في أفولا في قلب إسرائيل لا في الأرض المحتلة. وبعد أسبوع واحد قتل انتحاري آخر خمسة إسرائيليين في حافلة. فقد ولد العنف عنفاً.

وقد تسببت هذه الهجمات الانتحارية في تحفظ الكثيرين على اتفاقيات أوسلو التي كانت قد وقعت في العام السابق واعترفت بمقتضاها منظمة التحرير بوجود إسرائيل في نطاق حدود ١٩٤٨، وتعهدت بوضع حد للعنف والإرهاب في مقابل استقلال محدود للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة لمدة خمس سنوات تبدأ بعدها المرحلة الأخيرة من المفاوضات بخصوص قضايا الاستيطان الفلسطيني في

الأرض المحتلة، وتعريض اللاجئين الفلسطينيين ومستقبل القدس. إلا أن تفجيرات القنابل الانتحارية أوضحت أنه ليس باستطاعة عرفات التحكم فى القتالين الإسلاميين الذين يعارضون نظامه العلمانى. واتهم بعض الإسرائيليين، خاصة الذين ينتمون إلى اليمين السياسى راين بتعريض أمن إسرائيل للخطر فى أوُسُلر.

وقد أثارت اتفاقيات أوُسُلر غضب الحاخامات الشديد، خاصة أتباع كوك. واعتبروا أن الحكومة ارتكبت فعلاً إجرامياً بتوقيعها على التنازل عن أرض مقدسة. وهكذا، أمر الحاخام آفراهام شابيرا وأربعة عشر حاخاماً آخرين من الجوش فى شهر يوليو عام ١٩٩٠، الجنود بعصيان أوامر رؤسائهم العسكريين بالهلاء عن بعض الأراضى المحتلة. وكان هذا يرقى إلى كونه حرباً أهلية. وتساءل حاخامات آخرون عما إن كان راين قد أصبح Rodef أى «متعقباً»، وهو الشخص الذى يهدد حياة شخص يهودى تهديداً نشطاً والذى يقضى القانون اليهودى بقتله. وفى نوفمبر عام ١٩٩٥ قام طالب فى جامعة بار إيلان باغتيال راين أثناء مسيرة من أجل السلام. وقال القاتل فيما بعد إن دراسته للقانون اليهودى قد أقتنعت أنه راين كان «متعقباً» وأنه عدو للشعب اليهودى ومن ثم ينبغى قتله.

ومثل اغتيال السادات، أوضح مقتل راين أن ثمة «حربين» تتواجدان فى الشرق الأوسط. وإحدى هاتين هى الصراع العربى الإسرائيلى أما الأخرى فهى حرب فى داخل كل بلد على حدة، مثل مصر وإسرائيل بين العلمانيين والمتدينين. وليس اليهود المتدينون وحدهم هم من يشعرون بالحنق العميق وبأنهم يُهاجمون. فبالمثل، يشعر العلمانيون فى إسرائيل بالاستياء من اليهود المتدينون الذين يهاجمونهم. فإثناء تجوله فى منطقة للحريديم بالقدس، تذكر الرواى الإسرائيلى المرموق عاموس عوز أن الصهاينة الأرائل كانوا يكرهون اليهودية الأرثوذكسية وكانوا يهودون نفى هذه الحقيقة من العالم حولهم ومن أرواحهم. فقد صوروا، فى تفجر للكراهية والبغضاء، هذا العالم كمستنقع، كومة من الكلمات الميتة وأرواح خامدة. وقد استجاب الحريديم لتلك البغضاء العلمانية بنفس الأسلوب. فقد لاحظ عوز على الجدران فى الأحياء التى يقطنها النيتورى كاراتا (خراس المدينة) رسوماً لصليبان معقوفة سوداء وكتابات تقول: «الموت للمهتلرين الصهاينة»، وه إلى

المجسيم يا تيدي كوثيك، (رئيس البلدية في حزب العمل). وتذكر عوز أيضاً مدرسه دوف سادان الذي تجادل بشأن الصهيونية العلمانية قائلاً إنها مجرد حلقة في التاريخ اليهودي وستنتهي وتعاود اليهودية الأرثوذكسية الظهور وتلتهم الصهيونية وتبتلعها، وشعر عوز وهو يتجول في شوارع ذلك الحى الأرثوذكسى برهاب الاحتجاج وسحقته حيوية اليهودية الحريدية، إذ إنها تنمو وتتضخم، وتهدد وجودك الروحي، وتلتهم جذور عالمك وتستعد لوراثته كله حينما ترحل أنت وأمثالك. فكما يبدو، فإن الإسرائيليين العلمانيين يخشون أيضاً الإبادة ويشعرون بالرعب اللاعقلاني حينما يواجهون أعداءهم المتدينين.

وقد لمس عوز جوهر المشكلة. فالأصوليون والعلمانيون - من أبة عقيدة - في حالة حرب لأن مفاهيمهم عن المقدس جد مختلفة، فحينما تحدث عن الجوش أمرين، أسماهم عوز وطائفة قساة الأفتدة أتوا من ركن مظلم من اليهودية، يهددون بتدمير كل ما هو عزيز ومقدس لدينا. وبالنسبة للعلمانيين، سواء كانوا يهوداً أم مسيحيين أم مسلمين، فإن قيماً تنويرية مثل استقلال الفرد والحرية الفكرية، هي قيم مقدسة لا تنتهك. ولا يمكنهم مقايضة تلك القضايا أو تقديم تنازلات بشأنها حيث إنها مبادئ مركزية للهوية الليبرالية أو العلمانية لدرجة أن الناس يشعرون أن وجودهم نفسه مهدد لدى أى تهديد لتلك القيم. فكما يخشى الأصوليون الإبادة على أيدي العلمانيين، رأى الليبرالي عوز أن الجوش يتوعدون بأن ينزلوا بنا شهوة دم متوحشة مجنونة، ثم يواصل قوله:

«إن الهدف الرئيسي للجوش ليس غزو نابلس أو الخليل، بل هو فرض نسخة قبيحة ومشوهة من اليهودية على دولة إسرائيل. هدفهم الأساسى هو طرد العرب لكي يقيموا اليهود فيما بعد للدفع بنا جميعاً تحت سطوة أنبيائهم المرضى. ويحذق المتدينون والعلمانيون في بعضهم وقد غلّكهم الرعب. ولا يستطيع أى منهم أن يرى الآخر بوضوح. ويسترجع كل من الجانبين التجاوزات وأفعال القسوة وعدم التسامح، للجانب الآخر. ولا يستطيعون التوصل إلى وفاق وقد تعمقت جراحهم حتى وصلت القلوب.

كان هناك أيضاً استقطاب وأفعال عدائية في أمريكا. وبدا الأصوليون

الأمريكيون على درجة أكبر من التحكم فى النفس وإطاعة القانون . فلم يقيم الأصوليون الأمريكيون باغتيال رؤساء جمهوريتهم ولم يقودوا ثورات أو يحتفظوا برهائن . إلا أن صدعاً عميقاً قسم الدين فى أمريكا . فقد بينت استطلاعات الرأى أن السكان المتدينين فى أمريكا منقسمون انقساماً تاماً إلى معسكرين شبه متساويين ومتعادين . فقد بين استطلاع جالوب الذى أجرى فى يونيو عام ١٩٨٤ أن ٤٣% من الأمريكيين دعوا أنفسهم ليبراليين ، وأن ٤١% منهم أسموا أنفسهم محافظين ، وأن معظم الطوائف منقسمة منصفة . وقد تجادل معظم من أدلوا بأصواتهم مبينين أن الصدع خطير . وكانت صورتهم وللجانب الآخره سلبية ، ولم تتغير هذه الصورة ، كما تتغير أشكال أخرى من التعصب لدى اتصالهم ببعض عن قرب . كما بينت استطلاعات أخرى أنه رغم أن ٩% فقط ميزوا أنفسهم كأصوليين إلا المبادئ الجوهرية للأصولية البروتستانتية كانت واسعة الانتشار :

اعتقد ٤٤% أن الخلاص يتأتى فقط عن طريق المسيح عيسى .

وصف ٣٠% أنفسهم بأنهم ولدوا من جديد .

اعتقد ٢٨% فى وجوب تفسير الإنجيل حرفياً .

أنكر ٢٧% احتمال احتواء الإنجيل على أخطاء علمية وتاريخية .

ويعزى نجاح الأصولية الأمريكية إلى براعة تسويق جيمى فولويل والإنجيليين المتلفزين الآخرين . فثمة عناصر فى الثقافة والحياة الدينية الأمريكية تشجع هذه العقيدة الحرفية وتمدها بتربة خصبة .

إلا أنه حدثت نكسة شديدة للأصوليين خلال الثمانينيات . فلم تحدث حملة إرهاب ولم يقع اغتيال رئيس جمهورية . وبدلاً من هذا ، تسببت إحدى الفضائح فى الإضرار بقضية الأصوليين ، وكانت مدمرة وعدمية بأسلوبها الخاص ، وهددت بإغراق الإنجيليين المتلفزين فى بحر من التفاهة والتكالب على الأموال والمخططات الجنسية .

فهل كانت ثمة أشياء فى طبيعة الأصولية الأمريكية ساهمت فى فضائح عام

فمنظراً للاهتمام المسيحي بالمبادئ والتعاليم . اتخذت الأصولية الأمريكية مساراً في اتجاه يخالف الحركات الأخرى التي بحثناها . لقد كان معنى التأكيد اليهودي الإسلامي على الممارسات أن أصولي هذه العقائد حولوا أساطير موروثاتهم إلى أيديولوجيات . وحدثت بعض أسوأ إفراطاتهم لأنهم حاولوا تنفيذ تلك الأساطير حرفياً في العالم الواقعي . فقد سعوا إلى الوصول إلى معيار الكفاءة الحديث الذي يستلزم أن يكون تطبيق الحقيقة ، فاعلاً كى تؤخذ مأخذ الجد . فحول الأصوليون اليهود والمسلمون منطق عقيدتهم الروحاني إلى منطق عقلاني براجماتي بهدف تحقيق نتائج عملية ، وأوجدوا بذلك هجيناً لاهو بالعلم الجيد ولا بالدين الجيد . وكان على هذا الهجين أن يأخذ اتجاهاً مضاداً لموروث كامل من الروحانية ويجابهه مما أدى إلى توتر وافتعال عظيمين مصدرهما أن الحقيقة ليست عقلانية منطقية بطبيعتها ولا يمكن تقديم البرهان عليها عملياً . ولأن الأصوليين البروتستانت كانوا يميلون إلى تجاهل ما هو تلقائي وروحاني تصوفي ، فقد فقدوا الصلة بدوافع اللاوعي الأعمق للشخصية الإنسانية . وكنيجة لهذا ، كان الإحياء الأمريكي أحياناً عماء يتميز بالعصابية . إلا أنه بنهاية الثمانينيات كان بعض الأصوليين على استعداد للشورة على قيود العقيدة العقلانية . وكما رأينا ، كان الجنس إحدى إشكاليات الأصوليين البروتستانت . كما تملك الكثيرين منهم القلق بشأن الفجوة والحدود بين الأنواع . فلم يكن إذاً من المثير للدهشة أن يأخذ التمرد لدى حدوثه شكلاً جنسياً .

ويشكل البيث التليفزيوني ، والمداينة العامة التي تصاحبه أحياناً ، مصائد لغير الحذرين روحانياً . ولا يقتصر الأمر على الترجية التي تتضمنها عبادة الشخصية ؛ والتي لا تتماشى مع التسامى مع الذات ، وهو من الشروط المميزة للمسمى الروحاني ، بل يصبح هناك احتمال خطر أن يفقد الإنجلييون التلفزيون صلتهم بالواقع . ولم تتوافق المبالغ الهائلة من الأموال التي كانت في قبضة الشبكات التليفزيونية الأكثر نجاحاً مع تعاليم الكتاب المقدس بنيد المسعى إلى الإثراء المادى . واجتذب جيم وتامى فاى باكر أصحاب شبكة PTL (المجد للرب وللمحبين من البشر) فى كارولينا الشمالية الانتقادات السلبية لأسلوب حياتهما الباذخ . وكانت صحيفة تشارلوت أبزيرفر قد دأبت لعدة سنوات على إيضاح كيف أنفق

جيم وتامى ٣٧٥,٠٠٠ دولار على منزل مشترك يملكه مطل على المحيط و٢٢,٠٠٠ دولار على سرايا تجسّمه ترتفع من الأرض إلى السقف وكان هذا الأسلوب يختلف كثيراً عن نظام فولويل فى ليثبرج الذى تميز بالانزان وضبط النفس.

وكان الزوجان باكر يشتهران على وجه الخصوص بحديقة التيمة المسيحية «إرث الولايات المتحدة» التى كانت تقدم تجربة الإنجليين فى أمريكا الشمالية بأسلوب دينزى وتجتذب أعداداً ضخمة من الزائرين. وتقرح سوسان هاردنج عالمة الأنثروبولوجى الأمريكية فى مقال أسر لها أنهما كانا يقومان بعرض ثورة واعية على تدين فولويل المتزن ويدفعون بالأصولية باتجاه مرحلة ما بعد حداثة جديدة. فقد استجابت الأصولية منذ أواخر القرن التاسع عشر لتحدى الحداثة بأن حاولت جعل العقيدة عقلانية بشكل كامل. فأكدوا على فضيلة المنطق والعقلانية الواضحة، واعتنقوا حُرْفية متزنة تتجنب الخيال والفاقتازيا. وقاموا بتنظيم الحياة فى شكل أقسام مستقلة محكمة حيث كان الصواب مميّزاً عن الخطأ بشكل كلى واضح. وتم وضع المؤمنين فى تصنيف يختلف تماماً عن تصنيفات العلمانيين والمسيحيين الليبراليين. وكانت أخلاقياتهم أخلاقيات فصل: فأوجد الأصوليون ثقافة مضادة افترض فيها أن يكون كل شيء مخالفاً للتيار الرئيسى. ووفرت هذه العقيدة يقيناً صلباً وهرمية تتحدى الشكوك والأسئلة المفتوحة والأدوار المتغيرة المتبادلة للعالم الحديث. وكانت حديقة «إرث الولايات المتحدة»، مثل أشكال ثقافة ما بعد الحداثة الأخرى، قد تميزت بخلط الأنواع، واللعب، والمتعة، والمشهد الآخاذ.

ومحاولتهم جعل عقيدتهم علمية وعقلانية، دفع الأصوليون بالدين ليصبح أسلوباً غير طبيعى. وكما ثار الأصوليون على عقلانية داروين العلمية والتساؤل الحر، بأن تمسكوا بمشال بيكون، قام الزوجان باكر بالثورة على عقلانية الأصوليين الذين ينتمون للأسلوب القديم من أمثال فولويل. وكما تبين هاردنج فقد كانت «إرث الولايات المتحدة» فى عرضها للتاريخ المسيحى الأمريكى جميعاً لمصنفات فى مزيج مفرط. وبدلاً من التأكيد على أن الحقيقة واقعية، جذبت عروض «إرث

الولايات المتحدة، الانتباه إلى تجميعاتها المصطنعة غير الطبيعية في الحديقة. وأتى المركز التجارى هناك مزيجاً من المعمار الفيكتورى والكولونيالى؛ خليطاً كهربائياً لأساليب وفترات دون أية محاولة لتمثيل الواقع. ففى المدخل، تم عرض مسكن يبلى جراهام «الفعلى» (كما قيل) إلا أنه كانت هناك صور على الجدران تبين أنه هدم وأعيد بناؤه فى الحديقة، فقد كان نقله من موقعه الأصيل جزءاً من المعنى المستهدف. وكانت هناك نسخة طبق الأصل من الغرفة العليا Upper Room فى القدس الذى يعتقد أن المسيح تناول عشاءه الأخير ودفن القربان المقدس فيها، إلا أنها بدت وكأنها نسخة أعيد إنتاجها عن عمد. وكانت الطقوس الكنسية تقام فى استوديو تليفزيونى، إلا أنه، وخلافاً لفلوريل، لم يصور الزوجان باكر أبداً الطقوس والتناول والصلوات والوعظات النظامية كما كانت تؤدي. فقد كان التأكيد باستمرار على العرض، أى على الأداء المسرح والمشهد والفناتازيا لا على الكلمة، الحرفية الأصولية.

وتقترح هاردنج أيضاً أن الزوجين باكر، اللذين أكدا على الحب اللامتناهى للرب، كانا يطوران لاهوتاً شعبياً للرحمة اللامتناهية والذى بدا وكأنه يكاد يكرس للخطيئة، إذ كان يتعهد بالغفران الإلهي مقدماً. وقد شهدنا كيف أنه حدث أحياناً وأن انفجر التمرد المعادى لإلزام القوانين الأخلاقية فى فترات الانتقال حيث لم تعد أساليب الحياة والقواعد القديمة تناسب الظروف المتغيرة لبعض المؤمنين الذين كانوا يشعرون بالتقييد ويحاولون الوصول إلى شىء جديد، ومن ثم يجدون الراحة فى كسر انحرافات القديمة. وذهب البعض لدرجة أنهم طوروا شرائع وللخطيئة المقدسة. وفى مارس عام ١٩٨٧، حينما انفجرت أخيراً الفضيحة التى استأثرت باهتمام الأمة وجعلتها تحبس أنفاسها، بدا وكأن شيئاً مماثلاً كان يحدث أيضاً فى دوائر شبكية PTL (Praise the Lord and the People that Love) التليفزيونية، فادعت صحيفة تشارلوت أبزرفر أن جيم باكر قد قام بتخدير واغتصاب جيسكا هان، وكانت سكرتيرة إحدى الكنائس من لونغ آيلاند، ودفع لها ٢٥٠,٠٠٠ دولار فى مقابل صحتها. واتضح فى أعقاب هذا الكشف أن نامى فائ كانت قد أولعت بجراى باكستون مطرب أغاني الريف والغرب الأمريكى لدرجة أنها هدمت زواجه. وحينما انكشفت تلك الحقائق الرضيعة، لم يتسلسل

الزوجان باكر فى خزى، بل ظهرا علناً وهما يبديان أسفهما العميق، ويشترئان أمام جمهور ضخم من مشاهدى التلفزيون عن حب الرب وغفرانه.

كان نظام فولويل فى لينشبرج محاولة للتمسك بقيود الدين المحافظ ما قبل الحديث والذى أعان الناس على تقبل الحدود الضرورية. وتوضح قصة الزوجين باكر ما يحدث حينما يتم نبذ تلك القيود كلية. فعلى حين أن بعض الحركات الأصولية الأخرى قد نجت من خبرة القمع، عبرت مسيحية الزوجين باكر عن قناعة آخر القرن العشرين بأن أى شىء يمكن أن «يمر». وشعر الزوجان، بما يملكانه من أموال جمّة، بإمكان حدوث أى شىء. فلم تكن ثمة حدود حتى إنه أصبح بالإمكان إذابة مصنفات الصواب والخطأ القديمة تماماً فى «إرث الولايات المتحدة، كما يحدث فى الحقيقة والخيال. وغنى عن القول إن كل هذا كان تشويهاً للمسيحية.

ثم اتبع هذا كشفاً عن حقائق أخرى رهيبة. فقد استقال جيم باكر من PTL، وطلب من فولويل أن ينقذ الشبكة بأن يعمل كراع مؤقت لها. ثم انقلب جيم على جيمي سواجارت الذى كشف عن الفضيحة وادعى أن سواجارت كان يخطط للاستيلاء على شبكة PTL. وظهر أن لسواجارت جولاته الخاصة فى الانقلاب على القوانين الأخلاقية. وكان سواجارت حينذاك أكثر الإنجيليين التلفزيونين نجاحاً تقريباً. فقد كانت برامجه تبث فى ١٤٥ دولة، كما ادعى، وكانت فى متناول نصف أسر الكرة الأرضية. إلا أنه كان يزور إحدى العاهرات فى بيتون روج بلويزيانا. وقد أوضحت المرأة، التى قامت ببيع القصة فيما بعد، إنه لم يكن مهتماً بالجنس. بل بالإذلال والتحقير الطقوسى. وبدا وكأنه كان يسعى وراء تحطيم الذات، إذ إنه كان يعرف أن الناس قد شاهدوه وتعرفوا عليه فى ذلك المكان، ومع ذلك دأب على ارتياد المكان حتى انطلقت الجحيم من عقالها. وفضح سلوكه رجل دين آخر، وهو مارفن جورمان الذى كان سواجارت قد هاجمه فى عرضه التلفزيونى.

وكان سواجارت من أتباع الكنيسة الخمسينية Pentacostal. وفى الأوقات المبكرة، كانت أتباع تلك العقيدة الطرف النقيض للأصولية، إذ حاولوا تخطى العقل المنطقى والتعبير عن الحقيقة الإلهية التى لا يمكن التلطف بها. وبصفتها

هذه، سمعت تلك العقيدة باستمرار في اتجاه خطر الولوج غير المنظم إلى عالم اللاوعي وباتجاه المخاطر التي تصحب دوماً التخلي عن العقل. إلا أن العقيدة، في مبدأ أمرها، تميزت دائماً بالشمول والتخفي المتعاطف لحدود الطبقات والأجناس. أما سواجارت، فكان يبشر بديانة بغض. فقد اشتهر بهجمات البذيئة على الشواذ. وكان موضوع الشذوذ هاجساً كشف، بالتأكيد، عن اضطراب دفين بشأن نزوعاته الجنسية الخاصة. كما أنه انقلب انقلاباً شريراً ضد رجال الدين المنافسين له من الإنجليين التلفزيونين، وخلق بحملة صليبية أصدر فيها الأحكام على الأغلبية الأخلاقية. وبنبذه القيود التي تفرضها نظم الخير ونظم العقل أيضاً، اعتنق سواجارت تدنياً عمدياً مدمراً للذات بأسلوبه الخاص، مثل حركات أخرى سبق لنا بحثها.

وقد وجد الصحفي الأمريكي لورانس رايت جاذبية خاصة في أسلوب إلقاء سواجارت المُنقَر في العاطفية للمواعظ. وشعر أن سواجارت كان يتمرد على قيود الحدائث العقلانية. فقد كان أسلوبه «عاطفياً لدرجة التحدي»، يبعد سنوات ضوئية عن «الفعل العقلاني القاحل» الذي عرفه رايت في تدين طفولته. واكتشف أن جزءاً من نفسه كان يتوق إلى «نشوة التخلي عن عقلي الخاص المشغول الذي يميل إلى إصدار الأحكام المسخرة». وكذلك كان يفعل مشاهدو سواجارت الذين كانوا يستجيبون وهم في حالة نشوة لرعظه الذي يستحضر لحظات الذروة الجنسية.

«فقد كان يفوح أعمق وأعمق في اللاوعي، ويبصر متجاوزاً العقل والمعنى الواعي إلى العواطف والأحاسيس المفعمة والخواف الدفينة والرغبات التي لا اسم لها والتي تغلي في الباطن. كان صوته يرتفع ويرتعش، وتتبدد القواعد اللغوية، إلا أنه كان يتعثر باتجاه عصب التوق العاري المنكمش القابع. وكان يعرف مكانه. وكان المرء يرقبه برعب ورغبة لأن ذلك هو العصب المتصل بالعقيدة.. وبالتوق للحب والخلع» إلى أن تحين اللحظة التي يلمس فيها العصب أخيراً. فتنهمر الدموع، ويقف المشاهدون رافعين الأكف، يضحكون ويتحنون ويشكرون الرب، ويتحدثون بلغات غير معروفة، وهم يرتعدون من الألم واللذة نتيجة هذا العرض المثير العنفي».

وكانت الفضل الروحانيات قبل الحداثية مثل روحانية يوحنا الصليبي وأيزاك لوريا والملا صدره قد تجنبت الإغراق العاطفي حيث إنه لا علاقة له بالدين. وأصر هؤلاء على أن الرحلة الباطنية هادئة ومنظمة يكملها العقل. كما لم يحدث ودخل أحد أسرار تنظيم القبالة قبل أن يبلغ الأربعين ويتزوج ويصل إلى التوازن الجنسي. وقد فقد العالم الحديث، الذي أهمل المرات الأكثر تلقائية للمعرفة، ذلك التراث الصوفي الروحاني. ويبرهن نجاح سواجارت على أن الناس يتوقون للنشوة في عالم طفت عليه العقلانية، إلا أنه يبرهن أيضاً أن هذا المسعى قد يفقد توازنه. فيبدو أن سُر سواجارت كان مرتبطاً أكثر بحاجاته الجنسية، (ونستعمل هنا كلمات رايت في سياق مختلف) إلى الفضح العلني المشير، في موتيل بيتون روج، أكثر من ارتباطه بالروحانية.

إلا أنه قد تم البرهان على فشل العقيدة الأصولية بدرجة أكبر بالقت والغضب اللذين أظهرهما الإنجلييون المتلفزون ضد بعضهم بعضاً أثناء الفضيحة. فحينما تنامت علاقة باكر الجنسية مع جيسكا هان إلى أسماع سواجارت، تذكر أحد مساعديه السابقين أنه «انقض على جيم باكر كما ينقض الكلب الشرس على جرو صغير من فصيلة البودل الفرنسية» فقد «حطم الرجل ومزقه إرباً». وعقب هذا، انقلب باكر على جيمى فولويل الذى كان قد سارع بإنقاذ ال PTL واتهمه باستغلال الموقف للسيطرة على الشبكة. وثار فولويل لنفسه بأن استدعى مؤتمراً صحفياً حيث أبرز شهادات خطية تحت القسم لرجال ادعوا أنهم كانوا على علاقات جنسية بجيم باكر، مع مذكرة من تامى فاى عدت فيها ما تطلبه من PTL فى مقابل أن تبتمد وتلوف بالصمت وكان ذلك: ٣٠٠,٠٠٠ دولار سنوياً لجيم، و ١٠٠,٠٠٠ لنفسها، وحقوق الملكية لجميع كتب وتسجيلات PTL، ومسكنها الذى يساوى ٤٠٠,٠٠٠ دولار وسيارتين، وجهاز من رجال الأمن، وألعاب قضائية إلى جانب أجور المحاسبين الذين كانوا يحاولون فحص وتنظيم حسابات الزوجين باكر التى كانت فى حالة فوضى كبيرة.

وبدا أن مشروع الأصولية العظيم قد انتهى إلى طريق مسدود قاحل غير ذى معنى وكان فولويل. فى العام السابق على الفضائح، يتلىء ثقة. وكان قد غير

اسم «الأغلبية الأخلاقية» إلى «فدرالية التحرر» وأعلن أن الكثيرين من أعضائها سيرشحون أنفسهم للمناصب في انتخابات عام ١٩٨٨ على المستوى المحلي، ومستوى الولايات، والمستوى الفدرالي. إلى أن فولويل استقال في نوفمبر ١٩٨٧ بعد كارثة PTL من رئاسة «الأغلبية الأخلاقية» و«فدرالية التحرر» وأعلن انتهاء عمله السياسي وأنه لن يعمل أبداً من أجل أى مرشح كما عمل من أجل رونالد ريغان ولن يضغط من أجل أى تشريع. وفي أعقاب الفضائح انخفض دخله من «ساعة الزمن القديم للإنجيل» ووجد نفسه مجبراً على العودة إلى كنيسة الإنجيلية الخاصة. ومازال فولويل يطفو على السطح بين الحين والآخر شاجباً بعنف الشرور التي تعاني منها الأمة، إلا أنه بغير استطاعته إيجاد تحالف وشيك للمتدينين المحافظين يقلب به الأوضاع في الولايات المتحدة. وحينما فشل طلب ترشيح بات روبرنسون نفسه للرئاسة، بدت الهجمة الأصولية التي كانت قد بدأت عام ١٩٧٩، وقد أعلنت فشلها. وبدا أن اليمين المسيحي الجديد وقد حققه العار، قد أخفق رغم أن مسيحيين فرادى يواصلون الضغط من أجل البعث بناخبيه إلى صناديق الاقتراع، إلا أن العلمانيين عامة قد افترضوا أن تهديد الأصولية قد انتهى.

بيد أن الأصولية لم تمت: فقد دخلت في الواقع مرحلة جديدة أكثر تطرفاً في أمريكا، ففي ٢٨ فبراير عام ١٩٧٨ قاد راندال تيرى، وهو أحد المسيحيين الذين شهدوا «ميلاداً جديداً» من شمال ولاية نيويورك، ثلاثمائة «منقذ» إلى عيادة إجهاض في تشيرى هيل بنيوجيرسى. وهناك أدوا الطقوس الدينية عند ما أسماه «عبدة الجحيم» لمدة تقرب من إحدى عشرة ساعة قضاها يصلون ويرتلون المزامير ويمنعون النساء والعاملين من الدخول إلى العيادة. وبنهاية اليوم تم القبض على ٢١٦ من «المنقذين»، إلا أن تيرى أعلن بانتصار «أنه لم يمِت أى جنين، وكان هذا أول فعل «لعملية الإغاثة» التي أعلنت الحرب على ثقافة التيار الرئيسي بأن صورتها على أنها قاتلة في جوهرها. وكانت صور الخطاب المستخدمة قتالية. وخلال مؤتمر الحزب الديموقراطي في أطلانتا عام ١٩٨٨، بدأت الحملة ما أسماه تيرى «حصار أطلانتا» الذي ألقى القبض فيه على ما يربو على ١٣٠٠ متظاهر لحصار عيادات الإجهاض. ومنذ ذلك الحين، عمدوا إلى إقامة «أيام الإنقاذ» في كل أنحاء كندا والولايات، ونظموا أياماً للتدريب ليحاصروا «المنقذين» المحتملين من

شرو النسوية والحكومة الليبرالية ويلقنونهم التعليمات عن تقنيات جماعات الضغط. ووصفوا «عملياتهم» بأنها «أفعال إنقاذ إنجيلي». وخلالاً لفولويل وروبرتسون كان تيرى على استعداد للعمل خارج نطاق القانون. فقد كان هدفه أصولياً، أى «خلق أمة تصبح فيها الأخلاقيات اليهودية المسيحية أساس سياستنا، ونظامنا القانوني، وأخلاقنا العامة؛ أمة لا تطفو على بحر الإنسانية غير المستقر، بل بلد أساسه الوطيد هو القوانين العليا التي لا تنزحزح».

ولم تكن الحملة فقط ضد الإجهاض أكثر مما كانت محاكمة مكويكس عن التطور. فيعتقد تيرى وجماعته من «المثقفين»، كما اعتقد وليم جننجر برايان في العشرينيات أنهم يقاتلون أحد تجليات الهدائة العلمانية الأكثر توحشاً. ويعتقد تيرى أنه إن لم تنجح عملية «الإنقاذ» فلن يكتب لأمریکا البقاء. إلا أنه واثق، فهو يصر على «أننا لدينا جيش من الناس، وسينخفض، نتيجة لهذه العمليات، معدل قتل الأطفال، وسيبغ هذا (القضاء على) بورنوجرافية الأطفال، والبورونوجرافية عموماً، والقتل الرحيم، وقتل الأجنة.. فإننا نستعيد الثقافة». فهي حرب لدرء الكارثة الوشيكة وإنقاذ المدينة الأمريكية.

وتخوض «حركة إعادة الإنشاء» التي أسسها الاقتصادي جارى نورث من تكساس هو وحموه روساس جون رشدونى، حرباً ضد الإنسانية العلمانية أكثر تطرفاً من الحرب التي تخوضها «الأغلبية الأخلاقية». فقد نبذ الإنشائيون التشاؤم قبل الألفى من أجل أيديولوجيا أكثر إحدائاً للأثر. ومثل الأصوليين الإسلاميين، يهتم نورث ورشدونى، فى المقام الأول، بسيادة الرب إذ يريان أنه لا بد من إرساء ثقافة مسيحية تهزم الشيطان وتستدعى الملكة الألفية. أما المفهوم الأساسى لحركة «إعادة الإنشاء» فهو «السيادة». فقد أوكل الرب إلى آدم، ونوح من بعده، مهمة السيطرة على الأرض. وقد ورث المسيحيون هذه الوكالة وعليهم مسئولية فرض حكم المسيح على الأرض قبل قدومه الثانى. إلا أنه ليس للمسيحيين حاجة أن يفعلوا شيئاً لإنجاز هذا، لأن الرب نفسه سيطيح بالدولة الحديثة فى كارثة رهيبة. وسيجنى المسيحيون النصر الذى يصنعه الرب.

وفى هذه الأثناء يدرّب أعضاء الجماعة أنفسهم على الإمساك بزمام الأمور لدى

تدمير الدولة العلمانية. ورؤيتهم هذه، ما هي إلا تشويه كلي للمسيحية في نبذها للأخلاقيات ومنطق التعاطف. ويعتقدون أنه حينما تأتي ملكة الرب، لن يصبح ثمة فصل للدين عن الدولة، وستمحي هرطقة الديموقراطية الحديثة، ويعاد تنظيم المجتمع على أسس إنجيلية صارمة. ويعنى هذا أنه يجب تطبيق كل تعاليم وقوانين الإنجيل حرفياً. فستعود العبودية، ولكن يكون هناك تحديد للنسل (لأن على المؤمنين أن يتكاثروا ويتوالدوا)، وسيُقضى بإعدام الزناة والشواذ ومن يكفر بالكتاب والمنجمين والساحرات. وسيُرجم الأطفال الذين يشاربون في عصيانهم والديهم كما نص الإنجيل. كما يجب تطبيق اقتصاد رأسمالي صارم لأن اليساريين وذوى الميول اليسارية خطأ. فالرب لا يساند الفقراء، وحقاً، كما بين نورث وفهناك صلة محكمة بين الفقراء والشر. فلا يجوز استعمال الضرائب في برامج الضمان الاجتماعي حيث إن دعم الخاملين هو دعم للشره وينطبق هذا على العالم الثالث الذى تسبب إدمانه الانحراف الأخلاقي والوثنية وعبادة الشيطان في مشاكله الاقتصادية. فالإنجيل يحظر المساعدات الخارجية. وعلى المسيحيين أن يعدوا أنفسهم أثناء انتظارهم للنصر - الذى يعترف نورث أنه قد يتأخر بعض الوقت - لإعادة بناء العالم طبقاً لبرنامج الرب ويجب دعم سياسات الحكومة التى تقترب من تلك المعايير الإنجيلية الصارمة.

والسيطرة أو «السيادة» كما يتصورها نورث ورشدونى شمولية. فلا مجال لأى رأى أو سياسة أخرى، وليس ثمة تسامح ديموقراطى لأحزاب منافسة. كما علموا أن فرص شعبية مثل تلك الشريعة فى الولايات المتحدة هى بعيدة بالتاكيد. لكنه اقترح أن تحمل الدولة الكنسية السلطوية محل الحكومة الليبرالية التنويرية إذا حدثت كارثة اقتصادية أو بيئية. فقد استطاعت المسيحية، بعد كل شيء، تبنى الرأسمالية التى كانت غريبة على كثير من تعاليم المسيح. ومن ثم، يمكن توظيف المسيحية لمساندة الأيدولوجيا الفاشية التى قد تكون ضرورية للحفاظ على النظام العام فى ظروف متغيرة تغيراً متطرفاً.

وقد أبدى بعض أتباع طائفة البنتاكوست (الكنيسة الخمسينية) الأكثر محافظة اهتماماً بأيدولوجية «إعادة الإنشاء»، رغم أن رشدونى ينظر بازدراء إلى

تلك الطائفة. أما بات روبرتسون، فيبدو شخصية انتقالية. فهو معمداني ذو توجهات بنتاكرستالية وإحيائية. وهو يعتقد، مثل نورث، أن القدوم الثاني قد لا يكون قريباً، وهو اعتقاد يفصله عن الأصولية قبل الألفية. إلا أن روبرتسون يعتقد أنه على المسيحيين محاولة الاستحواذ على مناصب القوة في تلك الأثناء كي يقيموا مجتمعاً مؤسساً على معايير إنجيلية. ومن ثم، قام بتغيير اسم جامعتي في شاطئ فريجينيا وسميها جامعة ولي العهد، وأوضح أن ولي العهد هو شخص يحكم في غياب الملك. وهدف هذه الجماعة هو إعداد طلبتها السبعمئة لتولي مقاليد الأمور حينما تأتي مملكة الرب. فقد تغيرت الأصولية في أمريكا منذ نشر كتاب «الأصول» (١٩١٠-١٩١٥)، وأظهرت توجهات ما بعد حداثة مضادة لقوانين الأخلاق من جهة، وتشهداً ورؤية أكثر شمولية من جهة أخرى.

ولن تختفى الأصولية، فقد شكل الدين لمدة طويلة المعارضة للحكومة. وصعودها وسقوطها كان دوماً دورياً. وتبين أحداث السنوات الأخيرة الماضية وجود حالة حرب أولية بين المحافظين والليبراليين والتي كانت تتضح بشكل مخيف من حين لآخر. وفي عام ١٩٩٢ أعلن فولويل، الذي مازال يتمسك بالأسلوب القديم للأصولية، أنه بانتخاب بيل كلينتون للرئاسة أطلق سراح الشيطان حراً في الولايات المتحدة. ثم رعد فولويل قائلاً إن كلينتون على وشك تدمير الجيش والأمة والسماح للشواذ بالاستيلاء على مقاليد الأمور. وأن الأوامر التنفيذية بالسماح بالإجهاض في عيادات مولدة فدرالياً، والأبحاث على أنسجة الأجنة، والتعميد الرسمي لحقوق الشواذ علامات على أن أمريكا قد أعلنت الحرب على الرب.

وفي عام ١٩٩٣ حدثت إصابات في تلك الحرب. فقد اقتحم رجال مكتب المشروبات الكحولية والدخان والأسلحة النارية مجمع فرع دافيد-Branch Davidian التابع لدافيد كوروش في واكو بولاية تكساس لما قيل عنه إنه مخزن للأسلحة. وفي الواقع، فإن الفرع الذي كان أحد شعب المسيحيين السبتيين (Seventh Day Adventists) كان لديه مجموعة من الدخيرة مثل الكثير من الأشخاص والأماكن في تكساس. إلا أن الجماعة لم تكن لديها خطط ثورية ضد الحكومة وقد قصد بالهجمة استعراض قوة وشرعية حكومة الولايات المتحدة. إلا أنها أنت بنتيجة

عكسية. فقد أدت إلى هجوم مكتب المباحث الفدرالية FBI على المجمع وإحراقه مباني الطائفة مما نتج عنه وفاة ثمانين رجلاً وامرأة وطفلاً. وفي الواقع، فقد برهنت الحكومة على جهلها بالطائفة، وعجزها أمام المحاصرين وعدم مقدرتها المساوية على السيطرة على الأحداث.

ومن جانبهم، يعد المسيحيون الأكثر تطرفاً أنفسهم لقتال الحكومة العلمانية. ولم نذكر في هذا الكتاب جماعة «الهوية المسيحية» الفاشية التي تخطت الأصولية بمراحل، ولا توافق، في واقع الأمر على الأصولية. وأعضاء هذه الجماعة يكرهون فكرة «النشوة Rapture»، أو اختطاف المؤمنين إلى السماء قبل الأحوال الأخيرة التي يعتقدون أنها أدت إلى إخصاء الدين المسيحي الأمريكي؛ فهم يريدون أن يكونوا معدين في الوقت المناسب لقتال الشر أثناء المحنة الكبرى Tribulation. ومعادين أشداء للسامية، فهم يبغضون دعم الأصوليين للصهيونية، الأمر الذي يروونه خطيئة عظمى. وفي نظرهم، فقد اغتصب اليهود لقب شعب الله المختار من الجنس الآري، والآن، فقد قاموا باغتصاب الأرض المقدسة التي كان يجب أن تظل تحت الانتداب البريطاني. ولا يعتقدون أن معارك آخر الزمان ستجرى في الشرق الأوسط، بل في أمريكا. كما يتبنون بهلو كوست جديد يقنى فيه الجنس الأبيض والولايات المتحدة. لذا، فهم يعدون أنفسهم للكارثة. كما أنهم يستبصرون دمار الحكومة الفدرالية الوشيك والتي يدعونها ZOG أو حكومة الاستعمار الصهيوني التي يسيطر عليها الشيطان واليهود وتكرس لتدمير هيمنة الشعب الآري. وقام بعضهم بتنظيم أنفسهم في مجموعات قتالية في أركان قصية من شمال غرب الولايات المتحدة حيث يتعلمون أساليب القتال ويجمعون المسدسات والبنادق والذخيرة، ويعدون للحرب الأخيرة. ويشن آخرون منهم الهجمات العسكرية غير النظامية على حكومة «الاستعمار» ويقتلون مسئولين من الدولة. كما يقوم بعضهم بتفجير القنابل في عيادات الإجهاض وحرقتها. وإن مثل هذه الأيديولوجيا هي التي ألهمت هجمة تيموثي ماكفاي بالقنابل على مبنى الفدرالي في ١٩ أبريل ١٩٩٥.

ومن الصعوبة بمكان توضيح أنشطة وأهداف جماعة «الهوية المسيحية» حيث

إنها ليست جمعية واحدة لكنها تجمع لمنظمات مدمجة لا تضم عدداً كبيراً من الأعضاء الذين قد يتراوحون بين ١٠٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ عضو لكنهم ذور توجهات تبعث على القلق ومثل الأصوليين الآخرين، اعتزل أعضاءها العالم الذي يحتقرونه ويخشونه ويخططون للاستيلاء عليه. وهم، مثل أكثر أنماط الأصوليين تطرفاً، يرون المؤامرات في كل الأنحاء، ويطورون شريعة حنق واستياء. إلا أنهم فاقوا الأصوليين بأيدولوجيتهم الفاشية المعلنة. وكراهيتهم الخالصة للولايات المتحدة وتطرفهم في الانسحاب من الحياة الحديثة. ولم تعد مشاكل التعاليم والعصمة الإنجيلية تهم الجماعة، فمجموعات «الهوية» هذه تريد اقتطاع دولة آرية منفصلة خاصة بهم في أمريكا. وقد طورت «الهوية المسيحية» لنفسها أيديولوجية اغتراب وإرهاب غير مسبوق في التاريخ الأمريكي. ومثل «إعادة الإنشاء»، فإن اتحاد «مجموعات الهوية» غير المحكم إشارة صغيرة لكنها مقلقة لكيفية استعمال الدين ليعبر عن العجز والإحباط وعدم الرضا في المستقبل. وقد تشعر مؤسسات التيار الرئيسي بتراجع التهديد الأصولي في أمريكا، إلا أن الحرب مستمرة بالنسبة لبعض المسيحيين الذين يرون وجوب تدمير الحكومة الفدرالية. وبالتأكيد، فإن الصراع سيستمر في القرن الحادي والعشرين.

ولم يخفف الدين، بعد كل شيء. بل أصبح أكثر قتالية من أى وقت آخر في بعض الدوائر. لقد استجاب الأصوليون في الأديان الثلاثة بغضب محاولة خصخصة الدين وقمعه. وقاموا بإنقاذه، كما يعتقدون، من النسيان وقد ظلت تلك المعركة شاقة، تم تشويه الدين خلال مسيرتها الأمر الذي يمثل هزيمة للدين. إلا أن الأصولية الآن جزء من العالم الحديث. وهي تمثل إحباطاً شائعاً، واغتراباً وقلقاً وحنقاً ليس بوسع أية حكومة تجاهله دون أذى. وظلت الجهود التي تعالج الأصولية، حتى الآن، غير موفقة. فما هي الدروس التي باستطاعتنا تعلمها من الماضي، والتي قد تساعدنا على معالجة المخاوف التي تتطوى عليها الأصولية بأساليب أكثر إبداعاً؟



eikandi.com

بغير استطاعتنا أن يكون تديننا

على شاكلة أسلافنا فى العالم ما قبل الحدائى حيث

أعان الإيمان الطقوسى، والأساطير الناس على تقبل

الحدود الجوهريه فى ظل المدنيه الزراعيه. فتوجهنا

الآن نحو المستقبل، وبغير استطاعة هؤلاء الذين تم

تشكيلهم وفقاً لعقلانية العالم الحديث فهم الأشكال

القديمة للروحانية. فنحن لا نختلف كثيراً عن نيوتن،

أحد أوائل من تشربوا الروح العلميه بشكل كلى فى

العالم الغربى، والذي وجد من الخيال عليه فهم منطق

الروح الأسطورى.

فمهما حاولنا جاهدين أن نعتق الدين التقليدي، فإن توجيهنا هو إلى رؤية الحقيقة وقائع تاريخية وإمبريقية. وأصبح الكثيرون مقتنعين أنه من أجل أن يؤخذ الدين مأخذ الجد، فعلى أساطيره أن تبرهن على كونها تاريخية قابلة للتنفيذ على أرض الواقع بكل الكفاءة التي تتوقعها الحدائث. وقد عمدت أعداد متزايدة، خاصة في العالم الغربي، من الذين خبروا المآسى في القرن العشرين إلى رفض الدين. ويعتبر هذا موقفاً صادقاً من الذين يرون أن منطق العقل هو السبيل الوحيد لمعرفة الحقيقة. وكما أصر العلماء منذ البداية، فبغير استطاعة منطق العقل التعامل مع قضايا المعنى النهائي التي تقع خارج نطاق المسألة الإمبريقية. وليس لدى العلم ما يقوله حينما يواجه برعب الإبادات في قرننا هذا.

ومن ثم، فهناك خواء في قلب الثقافة الحديثة خبره الناس في المراحل الأولى للثورة العلمية. فقد تراجع پاسكال، وقد استولى عليه الرعب عندما واجهه خواء الكون. ورأى ديكارت البشر على أنهم السكان الأحياء الوحيدون لكون شامل

عاجز . وتخيل هوبز أن الإله بنأى عن العالم وأعلن نيتشه موته . فقد فقدت البشرية توجهها وألقت بنفسها فى خواء لا نهائى .

إلا أن هناك آخرين شعروا بالتححرر وبالتخلص من القيود ، بعد أن فقدوا العقيدة ، وتحادل سارتر الذى اعترف بوجود «ثقب على شاكلة الإله فى الوعى الحديث» قائلاً إن علينا رفض الإله الذى ينفى حريتنا . واعتقد ألبير كامو (١٩١٣ - ١٩٦٠) أن رفض الإله سيساعد على حب البشرية وتركيز الاهتمام عليها . ورضع آخرون ثقتهم فى مثل التنوير : وتطلعوا إلى مستقبل يصنع البشر عقلانيين متسامحين ، يبجلون الحرية المقدسة للفرد بدلاً من إله متخيل قسى ؛ وأوجدوا أشكالاً روحانية علمانية تمدهم بالتسامى والبصيرة والنشوة ، كما طوروا نظمهم العقلية والعاطفية الخاصة .

وعلى الرغم من هذا ، فهناك أعداد كبيرة من الناس يريدون أن يظلوا متدينين ، وحاول هؤلاء تطوير أشكال جديدة من العقيدة . والأصولية هى فقط مجرد أحد

أشكال التجارب الدينية الحديثة؛ وكما رأينا، فقد نجحت في وضع الدين بوضوح على الأجندة الدولية مرة أخرى. إلا أنها غالباً ما تفقد البصيرة فلا ترى أكثر قيم الأديان السماوية قدسية. فقد حول الأصوليون منطلق الروح لدياناتهم إلى منطلق العقل بإصرارهم على صحة دوعمهم علمياً، أو بتحويل أساطيرهم المعقدة إلى أيديولوجيات انسيابية مبسطة. حيث يتم بهذا إدماج مصدرين وأسلوبين للمعرفة يكمل أحدهما الآخر، على حين أن الناس في العالم ما قبل الحديث كانوا قد قرروا، عن حكمة، الإبقاء عليهما منفصلين. وتبرهن تجربة الأصوليين على صحة هذه البصيرة المحافظة. فبواسطة الإصرار على أن الحقائق المسيحية وقائع يمكن البرهان عليها علمياً، أوجد الأصوليون البروتستانت كاريكاتيراً لكل من الدين والعلم. كما شوه اليهود والمسلمون الذين عرضوا عقيدتيهما بشكل منطقي عقلاني منهجي، كى ينالوا الأيديولوجيات الأخرى، موروثاتهم، وضيعوا ألقها، بحيث قلسوها إلى نقطة واحدة من خلال عملية انتقائية متصلة. وكنتيجة لهذا، تجاهل الجميع التعاليم الأكثر تسامحاً وشمولاً وتراحماً، ونمو شرائع غضب واستياء وانتقام. وقد أدى هذا، بين الحين والآخر، إلى انحراف الدين نتيجة لاستعماله للتكريس للعقل المنطقي. فحتى الأغلبية العظمى من الأصوليين، الذين يعارضون مثل تلك الأفعال الإرهابية، يميلون للقصرية، ويدينون من لا يشاركهم آراءهم.

إلا أن الغضب الأصولي يذكرنا أن ثقافتنا الحديثة تفرض متطلبات شديدة الصعوبة على البشر. فقد منحتنا بالتأكيد مزيداً من القدرات، وفتحت أمامنا عوالم جديدة ووسعت آفاقنا ومكنت كثيراً منا من حياة أكثر سعادة وصحة. إلا أنها كثيراً ما أصابت تقديرنا لذواتنا بالعطب. ففي نفس الوقت الذي أعلنت فيه نظرنا العقلانية للحياة أن البشر هم مقياس جميع الأشياء وحررتهم من التراكل غير المناسب على إله فوق طبيعي، كشفت أيضاً عن ضعفنا وهشاشتنا وفقداننا للكرامة. فقد قام كوبرنيكوس بخلعنا من مركز الكون وأوكل إلينا دوراً هامشياً. وأعلن ديكارت أننا لن نستطيع أبداً التيقن من أن أفكارنا تتوافق مع الحقائق خارج رؤسنا. واقترح داروين أننا مجرد حيوانات، وبين فرويد أننا لسنا على الإطلاق مخلوقات عاقلة حيث إننا نتواجد تحت رحمة القوى الطاغية غير العقلانية للاوعى والتي يمكن الوصول إليها فقط بصعوبة شديدة. وهذا في الواقع ما برهنت عليه

التجربة الحديثة فرغم العبادة العقلانية، فقد تم تقييد التاريخ الحديث بعمليات واصطياد الساحرات، والحروب العالمية التي كانت عبارة عن انفجارات للعقلانية. فمع عدم استطاعتنا مقارنة المناطق الأكثر عمقاً في النفس البشرية التي أتاحها لنا الأساطير، والطقوس الدينية، والممارسات الصوفية القديمة للعقائد المحافظة الأفضل، بدا وأن العقل المنطقي قد أصابه الجنون أحياناً في عالمنا والجديد الشجاع، ففي نهاية القرن العشرين، تبدو الأسطورة الليبرالية القائلة بأن البشرية تتقدم حالة أكثر استنارة، على نفس القدر من الفنتازيا مثل أي من الأساطير الألفية التي وردت في هذا الكتاب. إذ إن باستطاعة العقل، في غيبة قيوده حقيقته روحانية وأعلى، أن يصبح في مناسبات معينة شيطانياً ويرتكب جرائم في بشاعة أي عمل وحشي يأتي به الأصوليون إن لم تكن أكثر بشاعة.

وكانت الحداثة مفيدة وخيرة وإنسانية. إلا أنها كثيراً ما شعرت أن عليها اللجوء إلى القسوة خاصة في مراحلها الأولى، وظل هذا صحيحاً بشكل خاص في العالم النامي الذي خبر الثقافة الحداثية الغربية ثقافة غازية إمبريالية غريبة. وقد بحثنا عمليات التحديث في العالم الإسلامي التي كانت شديدة الاختلاف والصعوبة. فالحداثة في الغرب تميزت بالاستقلال والتجديد، أما في مصر وإيران، فارتبطت بالاعتماد على الغرب ومحاكاته، كما وعى هذا المؤرخون الإسلاميون وعياً شديداً. وأدى هذا إلى تغيير فحوى الحداثة في هذه البلاد. فلو عمد المرء إلى إعداد فطيرة مستعملاً مكونات خاطئة (بيضاً مجففاً بدلاً من البيض الطازج وأرزاً بدلاً من الدقيق)، وأيضاً الأدوات الخاطئة، فلن تتوافق النتيجة النهائية مع وصفه كتاب الطهو. ومن المحتمل أن يكون الناتج شهيماً إلا أنه مختلف. ومن المحتمل أيضاً أن يكون مغشياً إلى حد بعيد. لذا يكون من الأفضل استعمال أدوات ومكونات متاحة محلياً من أجل خلق تقارب أكثر مع النموذج المعتاد وذلك عن طريق توظيف الخبرة العملية ومهارات والطهو، المعتادة. ولقد أراد الإسلاميون من أمثال الأفغاني ومحمد عبده وشريعتي والخميني استخدام مكونات إسلامية لإعداد «فطيرتهم» الخاصة المميزة الحديثة.

بيد أنه كان من الصعب على بعض الغربيين، الذين توقفوا عن التفكير بأسلوب

دينى، تقدير مد العقيدة الجديد، خاصة حينما عبر عن نفسه بعنف وقسوة. وكثيراً، ما انقسم المجتمع الجديد إلى «أمتين» من العلمانيين والمتدينين يحيون فى نفس البلد غير مستطيعين التحدث بلغة أحدهم الآخر، أو أن يروا الأمور من نفس المنظور. فما يبدو مقدساً ومؤكداً فى أحد المعسكرات، يبدو شيطانياً ومخبولاً للمعسكر الآخر. ويشعر كل من العلمانيين والمتدينين بالتهديد العميق من بعضهم البعض. ولدى حدوث تصادمات بين رؤاهم عن العالم التى لا يمكن التوفيق بينها، كما حدث فى حالة قضية سلمان رشدى، يتفاقم الشعور بالاغتراب والغربة. ويصبح الموقف غير صحى يحمل كثيراً من المخاطر الغميلة. فالأصولية لن تختفى بل إنها تنطور فى بعض الأماكن من أقوى لأقوى، أو تصبح أكثر تطرفاً. فماذا يمكن للمؤسسة العلمانية الليبرالية أن تفعله لبناء معابر، ولتخاضى احتمال المعارك فى المستقبل؟

ومن الواضح أن الإجابة ليست هى الكبت والقمع إذ إنها تؤدى فى كل الأحوال إلى ردود أفعال سلبية، وبإمكانها الدفع بالأصولية والأصوليين المهتمين إلى التطرف الشديد. فقد أصبح الأصوليون البروتستانت الأمريكيين، بعد إذلالهم فى محاكمة مكويس، أكثر حرقية وتصلباً ورجعية. كما طفت على السطح أشد أشكال الأصولية السنية تطرفاً فى سجون عبد الناصر، وساعدت هجمات الشاه الشرسة على إلهام الثورة الإيرانية الإسلامية. فالأصولية عقيدة قتالية تتوقع لنفسها إبادة وشيكة. فليس مما يبعث على الدهشة أن تظل مخاوف الهلوكوست والكوارث المعادية للسامية تطارد الأصوليين اليهود صهاينة كانوا أم أرثوذكس متطرفين. فقد كانت عضه القمع عميقة فى أرواح من خبروا العلمنة عدواناً، مما أدى إلى تشوه رؤيتهم الدينية بحيث أصبحت بدورها عنيفة غير متسامحة. ويرى الأصوليون المؤامرة فى كل مكان، ويتملكهم الخلق الذى يبدو شيطانياً أحياناً.

وعلى الرغم من هذا، فإن محاولة استغلال الأصولية من أجل أهداف علمانية براجماتية يأتى بنتائج عكسية. فقد خطب السادات ود الإسلاميين والجماعات الإسلامية فى مصر كى يضىفى الشرعية على نظامه ويقيم أسس سلطته الخاصة.

كما دعمت إسرائيل حماس في البداية عملاً منها على تقويض منظمة التحرير. وفي كلتا الحالتين، ارتدت محاولة الاستغلال والتحكم إلى الدولة العلمانية بأسلوب قاتل مأساوي. ومن ثم، لا بد من السعي إلى تقييم أكثر موضوعية وعدلاً لفهم معنى هذه الحركات الدينية.

أولاً: لا بد أن نعرف أن تلك الشرائع والأيديولوجيات متجذرة في الخوف. فإن الرغبة في وضع تعريفات محددة للتعالم، وإقامة الحواجز، وعزل المؤمنين في محميات مقدسة يراعى فيها التاموس بصرامة، مصدره الرعب من الفناء الذي حدا بجميع الأصوليين إلى أن يعتقدوا من حين إلى آخر، أن العلمانيين يريدون إبادةهم. فإن أتى أى شخص يمثل هذه الفتازيا المحملة بالخوف المرضى والمؤامرات إلى طبيب نفسى سيشرح الطبيب الحالة على أنها حالة اختلال. فالرؤية قبل الألفية التي ترى بعض أكثر مؤسسات الحداثة إيجابية على أنها شيطانية، وتُضمر أحلاماً إبادية، وترى البشرية تندفع إلى حافة الهاوية، هي إشارة واضحة على الرعب والإحباط اللذين أوجت بهما الحداثة لكثير من الأصوليين البروتستانت. فلقد رأينا أن العدمية تكون جوهر البرنامج الأصولي وأنه من المحال طرد هذه المخاوف بأسلوب منطقي أو محاولة القضاء عليها بأساليب قمعية. فالاستجابة الأكثر إبداعاً هي محاولة تقدير عمق هذا الخطاب، حتى لو لم يكن باستطاعة الليبرالي أو العلماني مشاركتهم نفس المنظور الذي يسيطر عليه الرعب.

ثانياً، من المهم أن نفهم أن تلك الحركات ليست عودة بالية إلى الماضي إذ إنها حديثة ومحددة ومحدثة. فيفسر الأصوليون البروتستانت الإنجيل بأسلوب حرفي عقلاني مختلف تماماً عن المقاربات الأكثر تصوفاً ورمزية للروحانية ما قبل الحداثة. وكانت نظرية ولاية الفقيه للخميني قلباً صادقاً ثورياً لقرون من الموروث الشيعي. كما دعا المفكرون الإصلاحيون المسلمون إلى شريعة أكثر تحمراً وأنتجوا أيديولوجية مضادة للإمبريالية تتوافق مع الحركات الأخرى للعالم الثالث المعاصرة في زمانهم. وحتى اليهود الأرثوذكس الأشد تطرفاً الذين يديرون ظهورهم تماماً للعالم الحديث وجدوا أن يشيقاتهم كانت حديثة في جوهرها، أى مؤسسات تطوعية. وتبنوا صرامة حديثة في اتباع التوراة وتعلموا استغلال النظام السياسي

بأسلوب أتى بهم إلى السلطة بشكل يفوق ما تمتع به أى يهودى من مدة تناهز الألفى عام.

ولقد رأينا أن الدين فى جميع العصور قد ساعد الناس دوماً على أن يتوافقوا مع الحدائنة. فقد ساعدت الشاباتية اليهودية والكويكرية (مذهب الأصدقاء المهتزىن المسيحى) والميثودية، والتصوف الإسلامى، اليهود والمسيحيين والمسلمين ليعدوا أنفسهم لتغيير أعظم وأمدتهم بالسباق الذى يقاربون من خلاله الأفكار الجديدة. فقد استعد الأمريكيون، الذين لم يكن لهم صبر على مذهب الربوبية (الإيمان بالله بغير اعتقاد فى أديان منزلة Deism) الذى اعتنقه الآباء المؤسسون للجمهورية، للمعركة الثورية بواسطة اليقظة الكبرى The Great Awakening. كذلك طور المسلمون تقديراً للمثل الحديثة كفصل الدين عن السياسة عن طريق دينامية روحانيتهم الخاصة. وحقاً، فقد نظر إلى العلمانية والعقلانية العلمية فى بدايتهما فى أوروبا كأساليب مستحدثة للدين. وقد كانت بعض الحركات الأصولية القريبة التى درسناها حركات تحديثية. فمقد سعى حسن البنا وشريعتى وحتى الحمينى إلى أن يأتوا بالمسلمين إلى عالم الحدائنة من خلال سياق هم أكثر اعتياداً عليه من أيديولوجيات الغرب المستوردة، حيث يستطيعون، بهذا الأسلوب، والعودة إلى أنفسهم، ومساعدة الذين أجبروا على التخلف عن سيرورة التحديث على فهم معنى مؤسسات معينة مثل الحكومة النيابية والحكم الديمقراطى. وكانت هذه أيضاً محاولة لإعادة توطىن الحدائنة فى حيز المقدس. فقد كان الدين قبل الحدائنى يرى منطلق الروح ومنطق العقل، دائماً، مكملين لأحدهما الآخر. ولجأ الإصلاحيون الإسلاميون إلى موضعة المهمات البراجماتية للحكومة فى إطار دينى وتصوفى.

وكان هذا أيضاً جزءاً من ثورة الأصولية على هيمنة العلمانية. فقد كانت وسيلة لاستحضار الإله مرة أخرى إلى المجال السياسى الذى أقصى عنه. وبأساليب متنوعة، فقد رفض الأصوليون التقسيمات الحدائنية (فصل الكنيسة عن الدولة، والمقدس عن الدنىوى) وحاولوا إعادة خلق «الكلية» المفقودة. فقام المتدينون الصهاينة بشورة على ثورة الصهاينة العلمانيين الذين أعلنوا استقلالهم عن

الدين . فقد أرادوا حضوراً أكثر للإله وللتوراه في الأرض المقدسة عما كان متاحاً في الشتات . وأصر كل من الخميني وشريعته على أنه من المحال إقصاء المقدس عن السياسة . وأدان سيد قطب النظام الكافر العلماني في مصر ووصفه بأنه جاهلي . فمازال الذين لم يتشربوا بعد بالعلمانية يعون البعد اللامرئي للوجود ويريدون أن يروه منعكساً في نظام الحكم ولا يرون أى سبب في أن يجعلهم هذا أقل حدانة ، رغم أنهم يعلمون ضمناً أن هذا يقتضى انفصالهم عن بعض الأوجه المحافظة القديمة للدين قبل الحديث . ويعنى الإصلاح الدينى الأصولى أن نوعاً من النشاط الفاعل الذى كان يُنظر إليه على أنه غير دينى ، يتم تقديمه على أنه ضرورى . فقد أصر الصهاينة المتدينون والأصوليون المسيحيون والمسلمون على الحاجة للدynamية والتغير الشورى الذى يتوافق مع حافز الدفعة التقدمية للمجتمع الحديث البراجماتى .

إن المعركة فى سبيل الإله هى محاولة ملء خواء قلب المجتمع المؤسس على العقلانية العلمية . وكان باستطاعة المؤسسة العلمانية ، بدلاً من توجيه السباب إلى الأصوليين ، توجيه النظرة الطويلة الشاقبة الصلبة نحو ثقافتهم المضادة لفهمها . فقد كانت مجتمعات شكرى مصطفى الصورة المعكوسة لسياسة الباب المفتوح للسادات ، كما أن الإمبراطوريات الخيرية التى أنشأها الإخوان المسلمون والخطوات العملية التى اتخذتها الجماعة الإسلامية أبرزت بجلاء قاس تجاهل الحكومة آنذاك للفقراء ، على حين أن الاهتمام بهم قيمة حاسمة فى الإسلام . وأوضحت شعبية وقوة تلك الحركات أن الناس فى مصر مازالوا يريدون أن يكونوا متدينين رغم التوجهات العلمانية .

وكذلك كان الحال بالنسبة لحركة الخمينى الدينية فى إيران . فكان كلما تصاعدت المواجهة مع النظام ، اكتسب الخمينى أكثر وأكثر صفات الأئمة وأوجد فى شخصه بديلاً شيعياً لشخص الشاه الطاغية الذى لم يكن كثير من الإيرانيين يكونون له الود . كما كانت طبيعة التعليم فى الشيقات اليهودية تتباين مع الطبيعة البرجماتية للتعليم العلماني . فقد كان طلبة الشيقات يدرسون من أجل السعى إلى لقاء مع المقدس ، لا مجرد تحصيل معلومات مفيدة ، وجعلوا دراسة التوراة

مركزية في حياتهم بشكل أكبر من أى وقت مضى. وبرهن الأصوليون بإنشائهم المجتمعات البديلة على خيبة أملهم في ثقافة لا تستطيع استيعاب الجانب الروحاني بسهولة.

ولأن هذه الحملة لإعادة القدسية إلى المجتمع كانت قتالية، فقد أصبحت عدوانية ومشوهة وافتقدت التراحم الذى أصرت كل العقائد على أنه جوهر الحياة الدينية وأيضاً جوهر أى خبرة بما هو مقدس. ودعت، بدلاً من ذلك، إلى أيديولوجيا قصر وعزلة وكراهية وحتى عنف. لكن الغضب لم يكن حكراً على الأصولية. فكثيراً ما طورت حركاتهم علاقات جدلية مع العلمانية العدوانية التى لم تبد أى احترام للدين ولمن يتمسكون به. وكثيراً ما وقع العلمانيون والأصوليون فى شرك عداوات وتجريعات لولبية دائمة التصاعد. فإن كان على الأصوليين أن يطوروا تقييماً أكثر تعاطفاً لأعدائهم طبقاً لما تنص عليه تعاليم موروثاتهم، فعلى العلمانيين أيضاً أن يكونوا أكثر إيماناً بالنزوع إلى الخير والتسامح واحترام الإنسانية، تلك الأمور التى تميز الثقافة الحديثة فى أفضل أحوالها؛ وأن يوجهوا عنايتهم بشكل أكثر تأكيداً إلى المخاوف والقلق والاحتياجات التى تسيطر على جيرانهم الأصوليين، والتى لا يملك أى مجتمع تجاهلها.

obeikandi.com

46(07P)

المحتويات

الصفحة

٢	المقدمة
١٥	القسم الأول: العالم القديم والحديث
١٦	الفصل الأول: اليهود، البوادر (١٤٩٢، ١٧٠٠)
٦٤	الفصل الثاني: المسلمون، الروح المحافظة (١٤٩٢، ١٧٩٩)
١٠٨	الفصل الثالث: المسيحيون، عالم جديد جميل (١٤٩٢، ١٧٩٩)
١٦٤	الفصل الرابع: اليهود والمسلمون والحلالية (١٧٠٠، ١٨٧٠)
٢١٩	القسم الثاني: الأصولية
٢٢٠	الفصل الخامس: خطوط الحركة (١٨٠٧، ١٩٠٠)
٢٧٠	الفصل السادس: الأصول (١٩٠٠، ١٩٢٥)
٣١٤	الفصل السابع: الثقافة المضادة (١٩٢٥، ١٩٦٠)
٣٦٠	الفصل الثامن: التعبئة (١٩٦٠، ١٩٧٤)
٤١٨	الفصل التاسع: الهجوم (١٩٧٤، ١٩٧٩)
٤٧٠	الفصل العاشر: الهزيمة (١٩٧٩، ١٩٩٩)